القسم الثالث
نساء اللّه

obeikandl.com

(١)
فى انتظار أم النور التى لا تأتى

لم يكن صحيحا أن ظهور السيدة مريم العذراء – فى أى مرة من مرات التجلى المزعومة – كشف عن قوة النسيج الوطنى المصرى، ولم يكن صحيحا أنه نفى أى توترات طائفية تعيشها مصر.

ففى التجمعات الحاشدة التى التفت حول الكنائس التى قيل إن العذراء مريم تجلت من فوقها وقف الجميع فى انتظارها، لا فرق بين مسلم ومسيحى، اعتقد البعض أن هذا يمثل نفيا قاطعا لكل ما يقال عن الفتنة الطائفية فى مصر، وعن حالة الاحتقان الهائلة التى يشهدها المجتمع.

لكن ما حدث كان على العكس تماما، إن السيدة مريم العذراء لم توحد المصريين، بل أظهرت كم نحن مختلفون ومتناحرون، وفى حاجة عاجلة إلى عمليات ترميم إنسانية ودينية، أمام الكنائس تمسك الأقباط بإظهار مسيحيتهم، قاموا بتوزيع مطبوعات بها تماجيد للسيدة العذراء مثل ترنيمة "السلام لك يا مريم"، وقاموا بعزف ألحان كنسية مميزة منها لحن "خين إفران" ومعناه "ياالله"، ولحن "أكسيا" ومعناه "مستحقة، لم يكن العزف فرديا، فقد كون الشباب القبطى مجموعات للغناء والرقص مرددين التراتيل والترانيم.

المسلمون احتفلوا بالسيدة العذراء على طريقتهم أيضا، أمسكوا بالقرآن الكريم وبدأوا فى قراءة سورة مريم، فهى المرأة الوحيدة التى وضع اسمها على إحدى سور القرآن الكريم التى تصل إلى ١١٤ سورة، ورغم أن هناك سيدات كثيرات لعبن دورا مهما فى الدعوة الإسلامية وفى حياة الرسول

مثل السيدات خديجة وعائشة وفاطمة رضى الله عنهن جميعا، إلا أنهن لم ينلن تكريم تخليد أسمائهن بوضعها على سور القرآن، وهو ما يؤكد أن التكريم كان إلهيا ولم يكن بشريا بأى وجه من الوجوه، فهى سيدة النساء جميعا، وهى المرأة التى اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين.

الفروق بين المسلمين والأقباط فى الاحتفاء وانتظار السيدة العذراء، كانت أقل حدة من الفروق بين طوائف المسيحية، البروتستانت وانطلاقا من عقيدتهم أنكروا ظهور العذراء جملة وتفصيلا، فهم يذهبون إلى أن الكتاب المقدس لم يرد به أى نص أو آية تدل على أن العذراء ستظهر مرة أخرى، صحيح أن الكتاب المقدس أشار إلى أنها مكرمة وعظيمة، لكن مسألة التجلى هذه لم تكن مطروحة مطلقا.

يستسلم البروتستانت إلى التفسير العلمى والنفسى لظهور العذراء، فتجليها ليس إلا نوعا من الأوهام التى يستعصم بها أصحاب المشكلات والهموم والمظلومين فى الأرض، سواء كانوا أقباطا أو مسلمين، مطمئنين أنفسهم إلى أن ظهورها فيه إشارة إلى اقتراب رفع الظلم، فهى تظهر حتى تخفف عنهم همومهم وأحزانهم، وتقف إلى جوارهم ممثلة للسماء فى مواجهة جور أهل الأرض، ويدلل الدكتور القس إكرام لمعى كما قال لى على أن الظهور ليس إلا وهما لدى الفقراء والمظلومين بأنها تظهر فقط فى مناطق الفقراء مثل الزيتون والوراق وعزبة النخل وشبرا، ولا تظهر مثلا فى المناطق الراقية مثل الزمالك والمهندسين ومصر الجديدة وأرض الجولف.

البابا شنودة هو الذى أظهر ضراوة الخلاف مع البروتستانت فى واحدة من ظهورات العدرا فى سنواته الأخيرة (توفى فى العام ٢٠١٢)، فى البداية لم يكن حاسما فى مسألة الظهور من عدمه، كان عائدا من رحلة علاجية له فى أمريكا، دع عنك تندر البعض على البابا شنودة، من أنه طالما يعتقد فى ظهور العذراء، وهذا الظهور فى حد ذاته يأتى لعلاج المرضى، فلماذا تركها البابا فى مصر، وذهب يطلب الشفاء فى أمريكا؟، ولماذا لم

يسلم نفسه للعذراء كى تعالجه طالما أنه يوقن بقدرتها على شفاء المرضى، وسلم نفسه للأطباء الذين يتعاملون بالعلم ولا يعتمدون على المعجزات؟

لكن تأمل فقط ما قاله البابا وهو فى المطار عندما سئل عن ظهور العذراء، قال أنها تحب مصر، لم يقل ظهرت ولم يقل لم تظهر، لكنه فى عظته الأسبوعية يوم الأربعاء الذى أعقب ما تردد عن تجليها، أكد ظهور العذراء، وهاجم المشككين والمتشككين فيها وخص البروتستانت بالهجوم، قال البابا نصا: الإخوة المسلمين يؤمنون ببتولية العذراء وأن الله اصطفاها على سائر العالمين، وأغلب المسلمين يحبون ويكرمون العذراء مريم أكثر من بعض البروتستانت المسيحيين.

وكما مارس البابا شنودة تمييزا طائفيا فى تفسير الظهور أخرج به البروتستانت من المسيحية تلميحا وليس تصريحا، فإنه مارس تمييزا آخر يدخل فى باب الخرافة أكثر عندما قال نصا أيضا: البسطاء يستطيعون رؤية العذراء أما المعقدون فلا يرونها، ومن لا يؤمن بظهورها فإنها بدورها تمنعه من رؤيتها.

ظهور العذراء كان له تفسير طائفى آخر، فأمام أحد الكنائس التى قيل أن العذراء ظهرت فيها، قال رب أسرة مسيحى بدا عليه الإرهاق والتعب، إن ظهور العذراء يأتى ردا على الدكتور محمد عمارة الذى يتهم الإنجيل بأنه محرف، فظهورها يكذبه ويجعل ما يقوله ليس إلا نوعا من الأوهام، والآن فماذا يقول فى هذه المعجزة المؤكدة؟

إن ظهور السيدة العذراء المزعوم وحد الأجساد المتعبة لكنه لم يوحد القلوب المتنافرة والعقول المتناقضة، وإذا كان البعض يرى أنها جاءت لترفع المعاناة عن ظهور الأهالى الذين تتعبهم آلام الفتنة الطائفية، فهل معنى ذلك أن الأحداث الطائفية ستنتهى؟

أعتقد أن شيئا من ذلك لا يمكن أن يحدث، فالنار تحت الرماد، وظهور العذراء وحده ليس كافيا لأن ينهى التوتر الطائفى الذى تعيش مصر به وعليه، رغم كل ما يقال عن وحدة النسيج، والتلاحم الوطنى الذى لا يمكن أن يفصمه شئ.

لقد قال البابا شنودة إن مريم العذراء تجلت خمس مرات فى مصر فى الخمسين سنة الأخيرة، كان أعظمها تجلى الزيتون فى العام ١٩٦٨، ويجزم من يعتقدون فى ظهور العذراء أنها تأتى فى أوقات الأزمات التى يمر بها المصريون، جاءت بعد هزيمة ٦٧، وجاءت أكثر من مرة فى عهد الرئيس مبارك لما شهده من أزمات طاحنة أهلكت الحرث والنسل، وهو تفسير شعبوى متعصب، فهى تظهر للمصريين فقط، والبابا يفسر ذلك بأنها تحب مصر وتحن إليها لأنها زارتها مع المسيح عليه السلام هاربة به ممن أرادوا قتله.

فإذا كانت العذراء تظهر لمن يحتاجون إليها؟ فلماذا لم تظهر لأهالى فلسطين وهم فى أشد الحاجة لها؟

وإذا كانت تظهر فى الأرض التى تحبها، فلماذا لم تظهر فى أرض فلسطين على سبيل المثال؟، وهل هى تحب مصر أكثر من فلسطين التى ولدت وماتت فيها والتى صلب فيها ابنها طبقا للعقيدة المسيحية ورفع منها إلى السماء طبقا للعقيدة الإسلامية؟

ثم لماذا لم تظهر فى عصر الرئيس السادات، وهو العصر الذى شهد أكبر صدام سياسى بين الرئيس والبابا شنودة؟

أم أنها كانت غاضبة من الرئيس السادات، لقد قيل إنها ظهرت بعد نكسة ٦٧ لأنها أرادت أن تقف إلى جوار الرئيس عبد الناصر لمواقفه من الأقباط ولعلاقته الجيدة مع البابا كيرلس، وهو أمر مرفوض، فإذا كانت تظهر فى عهد رئيس يرعى الأقباط من أولادها، فلماذا ظهرت فى عصر

الرئيس مبارك وهو بكل الأحوال لم يكن عصرا سعيدا على الأقباط؟

ليس من شأنى أن أقتحم الخلاف اللاهوتى حول ظهور العذراء من عدمه، ولن أكون حزينا أو غاضبا إذا ثبت أن العذراء ظهرت وتجلت، ولكنى أنظر إلى حالة الاستخدام العامة لمثل هذا الظهور، وهو استخدام يحتاج إلى مزيد من التأمل والتروى فى الحكم عليه.

إن جموع المنتظرين لمريم العذراء أهانوها وانتقصوا من شأنها من خلال نوعية الهتافات التى رددوها وهى من نوعية "بص شوف العدرا بتعمل إيه"، و" الست العدرا منورة"، و"العمود منور ليه عشان العدرا واقفة عليه"، كلها تعبيرات مبتذلة وتصلح لتشجيع فريق كرة قدم، أو تحية ساحر الكرة المصرية أبو تريكة عندما يتجلى فى الملعب ويحرز هدفا، فيصيح الجمهور من وراءه "بص شوف أبو تريكة بيعمل إيه"، لكنها أبدا لا تليق بقداسة وعظمة ومكان ومكانة السيدة العذراء.

فجماهير بهذا القدر من الابتذال أعتقد أن العذراء مريم لن تكون حريصة أبدا على أن تتجلى لهم، خاصة أنهم نفعيون ذهبوا إليها وكل منهم يحمل همومه الصغيرة ويطمع فى أن تخلصه السيدة مريم منها، وهو ما يعكس منتهى العجز وقلة الحيلة عند من وقفوا فى انتظار من يعتقدون أنه يأتى ، ، رغم أنه فى الواقع لا يأتى أبدا.

لقد قيل إن ظهور العذراء فى أوقات كثيرة يكون له أهداف سياسية، ومن يقفون وراء هذا التفسير ويدعمونه يؤكدون أن هناك نوعا من التنسيق الأمنى فى إخراج مسرحية الظهور بهذه الطريقة لإلهاء الملايين التى تتابع الحدث وتشاهده عن القضايا الكبرى التى تعتصر مصر، هناك من يريد أن يغطى على كل المشكلات والأزمات التى تعصر الناس وتعتصرهم بخرافة أسطورية، يعرف من صنعها أنها ستكون قادرة على جذب المصريين جميعا إليها، وعندما تأتى الخرافة فلا مكان ولا قيمة لأى عقل.

التسليم بهذا التفسير فيه إفراط فى الاستسهال، لكن ما معنى إحالة أحد الكهنة فى الكنيسة الأرثوذكسية إلى التحقيق الداخلى ذات مرة لأنه أعلن بجرأة أن العذراء لم تتجلى، إن هناك حالة من التغييب يتم استخدام رجال الكنيسة فيها، وهم لا يعترضون على هذا الأمر حتى لو كانوا خلاله أداة طيعة فى يد الأمن، فالأمن بالنسبة للكنيسة من توابع ولى الأمر الذى لابد أن تطيعه وتسمع لما يقوله ربما دون نقاش.

هذا التفسير يمكن أن يأخذ به من يريد وأن يرفضه من يشاء، لكن على هامشه لا يمكننى أن أشكك بسهولة قد تصل إلى درجة السطحية فى تجلى العذراء، وأن أصفه بأنه خرافة أو مجرد لون من الدجل الذى يتملكنا، لأن الأقباط فى نهاية الأمر لا يتعاملون مع هذا الظهور على أنه أمر معجز فقط، فقد قدمت لهم العذراء كما يقولون عندما تجلت خدمات جليلة.

منها مثلا ما حدث فى أول ظهور لها عرفته الكنيسة الأرثوزكسية، فقد ظهرت للأنبا ثيئوفليس البابا الثالث والعشرين فى تاريخ الكنيسة حيث كان على وشك السفر إلى دير المحرق لتكريس الكنيسة المشيدة باسمها هناك، وقد أخبرته فى رؤية له بعد ظهورها له بكل الأماكن التى زارتها فى مصر ومعها السيد المسيح ويوسف النجار، وأخبرته بتفاصيل الرحلة كلها من فلسطين إلى مصر إلى آخر نقطة فى المنطقة التى أقيم فيها دير المحرق والعودة إلى فلسطين، وأوضحت له الطريق الذى سارت فيه العائلة المقدسة ذهابا وعودة إلى مصر، وعلى إثر هذه الرؤية قام البابا بكتابة كتابه عن الرحلة المقدسة الذى اعتمدته الكنيسة الأرثوزكسية كمصدر رئيسى لرحلة العائلة المقدسة داخل مصر.

أعانت السيدة مريم العذراء بظهورها كذلك الأنبا إبرام بن زرعة السريانى البابا الثانى والستين فى تاريخ الكنيسة على أن يعرف القديس سمعان الخراز ويعرف المنهج الروحى الذى من خلاله نقل جبل المقطم بمدينة الفسطاط فى زمن المعز لدين الله الفاطمى، حيث

تم نقل جبل المقطم فى القرن العاشر عندما طلب المعز من الأنبا إبرام أن ينقل الجبل من مكانه إلى مكان آخر كما يقول الكتاب المقدس: إن كان لكم إيمان مثل حبة خردل فقولوا لهذا الجبل أن ينقل فيتقل.

لم يكن ظهور السيدة العذراء أمرا خاصا بها إذن، ولكنه كان يحدث مرتبطا بظرف بشرى وبحاجة تؤرق الناس وتأخذ عليهم حياتهم كما حدث فى ١٩٦٨، وكما حدث كثيرا بعد ذلك، فالمعجزة لم تحدث أبدا لوجه الله، بل كان وراءها ما يحركها ويسهم فى صنعها.

إننا ارتضينا بمعجزات الأنبياء التى حدثت فى حياتهم وتم إخبارنا عنها دون أن نراها، لأنهم فى النهاية أنبياء أرسلتهم السماء بكلمتها وتأييدها لتوصيل رسالتها، وذلك تحديدا الذى لا يجعلنا لا نصدق بسهولة أى معجزة أو كرامة تظهر بعدهم، فالبشر يعيشون حالة من العجز الدائمة والمستمرة، ولأن زماننا يخلو من المعجزات فقد ساهم البشر فى صنعها وصياغتها والترويج لها، ولا فرق فى ذلك بين تجلى العذراء ومعجزات القديسين فى تاريخ الأقباط وكرامات ومعجزات الأولياء المسلمين الذين تنتشر أضرحتهم فى كل مكان دون أن نعرف لهم أصلا أو فصلا، لكنها عادتنا، فنحن نصنع الخرافة ونصدقها، نصنع الولى ونتقرب إليه، نصنع العجل ثم نعبده.

إننى لا أقول إن معجزات تجلى العذراء تتم فبركتها، فهناك من يستطيع أن يحلل ويفسر ويفحص الحدث وما يعقبه من أحداث ويتحمل هو مسئولية هذا الحكم العاصف، لكننى أذهب إلى أن معجزة ظهور العذراء تحدث داخل من رأوها ثم اعتقدوا أنها كانت واقعا، وفى كل مرة يتم تضخيم المعجزة، فالتضخيم فى النهاية سيكون مفيدا، فكلما كبرت المعجزة كانت فرصة تصديقها أكبر.

لقد تجلت العذراء فى مصر منذ أربعين عاما، وهو التجلى الذى يأتى على أنه الأهم والأكبر فى تاريخ التجليات المريمية، كان الظرف

الـذى رآهـا فيـه المصريـون مناسـبا، بلـد مهزومـة ومنسـحبة إلى الخلـف، وهـو مـا يتكـرر الآن فالبلـد علـى وشـك الانفجـار مـن جميـع النواحـى.

وعليـه فـإذا أردتم أن تتجلـى العـذراء فليـس عليكـم إلا أن تقـرروا ذلـك، فهـى لا تتأخـر عمـن يريـد أن يراهـا، فالعـذراء وكمـا كل القديسـين والأوليـاء يعيشـون فـى داخلنـا، نحـن الذيـن نمنحهـم حـق التجلـى، ونحـن الذيـن نحجـب عنهـم حـق الحيـاة، هـذا وفقـط.

obeikandl.com

(٢)
مريم المسلمة

صادر القرآن الكريم السيدة مريم العذراء لحسابه الخاص، منحها صورة أكثر بريقا وأسطورية من تلك الصورة التى اجتهدت الأناجيل المختلفة فى رسمها للسيدة التى سماها القرآن برضا تام وقناعة مطلقة سيدة نساء العالمين، وجعل المسلمين يأخذون منها أيقونة، يحتفظون بصورها فى بيوتهم، ولا يمانعون أن تعلق بناتهم صورها فوق صدروهم، فهى أم النور التى وهبت الحياة بمفردها نبيا هو نفحة من روح الإله فى رحم عذراء، اصطفاها ربها وقربها منه ومنحها صك براءة بمعجزة عندما نطق صغيرها وهو لا يزال فى المهد.

على طول التاريخ وبعد أن حصدت مريم الكبرى نصيبها من الألم، أدركت الأمهات أن كل مريم تولد لابد أن تحصل على نصيبها من ميراث الأسى، لكن لا تتردد الأمهات عن منح بناتهن حلاوة أن يحملن اسم مريم، فكل المريميات فى الوجع إخوة، و فى الخلود أيضا كذلك.

ولأنها تملك طاقة إيجابية خارقة، لا زالت قادرة على بثها فى النفوس المعذبة والأرواح اليابسة، فقد قدستها شعوب الأرض جميعا، كل شعب لديه مريم التى يرسمها من خياله، يضع ملامحها كما يروق له، فهى فى الهند هندية، وفى الصين صينية، وعند الزنوج زنجية، وعند العرب عربية، فمريم العذراء حالة أكثر منها امرأة من لحم ودم تحولت إلى أسطورة، لكل إنسان فيها نصيب، وهو نصيب يحدده كما يحب ويستريح.

منذ سنوات صدر كتاب لكاتب فرنسى شهير هو "ميشيل دوس" باحث فى الديانات ومتخصص على وجه الخصوص فى " مريم المسلمة"، اجتهد ميشيل فى عقد مقارنة بين صورة السيدة مريم فى القرآن الكريم وصورتها فى التوارة والإنجيل.

وضع نفسه أمام الكتب السماوية بعيدا عن أى انحياز، احتفظ برأيه الشخصى وترك الدراسة تأخذ مجراها، لم يسع إلى تفضيل صورة على أخرى، ترك نفسه فقط يتأمل فى الصورة التى رسمتها السماء لمريم العذراء ثلاث مرات فى عصور مختلفة، وعندما خرج من بين موجات الدراسة لم يخرج – بالنسبة لى على الأقل – بشئ له قيمة.

أعترف باهمية البحث العلمى، لكننى أعترف أيضا أنه يسرق روح الظواهر التى يدرسها.

ولذلك لم أستمتع بالصورة التى استقر عليها الكاتب الفرنسى، وقال إنها الصورة التى رسمها القرآن للمرأة التى رغم أنه لا يعترف بألوهية ابنها، إلا أنه يقدسها بل ويرفعها فوق نساء النبى سواء السيدة خديجة التى تزوجها وكانت أقرب إليه من روحه، أو السيدة عائشة التى كانت أحب النساء إليه.

بحثت عن مريم المسلمة ولكن عن طريق آخر.

لقد حفظت القرآن كاملا فى كتاب الشيخ عبد الجواد غلوش، بدأت الحفظ من أول صورة البقرة، وليس على الطريقة العادية التى يبدأ الحفظ فيها من قصار السور، ورغم أننى قابلت سيرة مريم عليها السلام فى سورة آل عمران، إلا أننى كنت أتعجل الخطو نحو سورة مريم التى أعتبرها – رغم التصنيفات والأسماء الكثيرة التى تطلق على السور – عروس القرآن الكريم.

تظل سورة آل عمران المحببة إلى قلبى، لا أعرف لذلك سببا، هل لأن حفظها كل الأسهل؟ أم لأننى أشعر تجاهها بألفة لا أشعر بها تجاه السور الأخرى؟ أم لأن بعضا من رائحة مريم جاء بها؟

هل أعجبنى أن تهب إمراة حملها لله لا تريد منه شيئا: "إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم"؟

أم أعجبنى سحر أم مريم وهى تتقرب إلى الله ببنتها، وتتحدث إليه فى سذاجة المريد عندما يقف بين يدى مولاه: " فلما وضعت قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى، وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم"؟

أم اعجبنى أكثر أن يتقبل الله الهدية شاكرا وممتنا: "فتقلبها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا".

قد يكون أعجبنى ما عرفته من خلال هذه السورة عن السيدة مريم رضى الله عنها، لقد وضع القرآن الكريم أول قانون لمحاربة الفساد على جناح قصة العذراء، وهنا تتجلى لى قيمة مريم القرآنية، فهى لم تكن قصة عابرة، ولكن تم توظيفها لتساهم فى بناء المجتمع.

"وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من غير حساب".

هذا الجزء من الآية كفيل وحده بأن ينهى الفساد فى العالم.

ودعونا نتأمل فقط حدود القانون التى يضعها القرآن هنا.

سيدنا زكريا عليه السلام يعرف جيدا مدى أمانة ونقاء وطهارة ونزاهة السيدة مريم، لا يستطيع أن يشك فيها أبدا، لا يرد على خاطره أى هاجس بأنها يمكن أن تأتى بشئ يغضب الله، ومع ذلك كان طبيعيا أن يسألها عندما وجد عندها طعاما وشرابا لم يأتها به، وهو المسئول الأول والأخير عنها.

ولأن السيدة مريم تعلم أن زكريا يسأل بجدية، ويريد أن يعرف من أين أتاها هذا الرزق، فقد ردت على الفور: هو من عند الله، ولأنها

تعرف أن هذه الإجابة غير كافية، فالله لا يمنح الكسالى رزقا دون سعى، بررت لزكريا ما جرى بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

هل يمكن أن نشير إلى أن قانون " من أين لك هذا؟ " الذى لا نعرف طريقا لتطبيقه الآن، هو القانون الذى حكم علاقة سيدنا زكريا بستنا مريم، هو لا يشكك فيها، ولكن لابد أن يسألها، وهى لا تقبل التشكيك فى أمانتها، ولكن تعرف أنها لابد أن تجيب عليه.

لم يشغلنى بريق سورة آل عمران عن بريق سورة مريم، السورة الأكثر تفضيلا لدى المسلمين، قصتها يختلط فى سطورها الفرح بالحزن، ولأننا نملك أكبر ميراث من الأسى فإننا نتماهى مع القصة الأكثر درامية ليس فى القرآن فقط، ولكن فى الحياة جميعا.

طبقا للرواية القرآنية، تتوالى المواقف المدهشة، والمزلزلة فى آن واحد:

"واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا".

ما الذى شعرت به فى هذه اللحظة، هل فرحت، هل غضبت، هل تملكتها الحيرة، هل فكرت فيما يحدث لها، وهل هو خيال أم حقيقة؟

أم استسلمت لما يراد بها ولها؟

فهى لن تمنع شيئا، وعليه فلا داعى لأن تقاوم.

" فحملته فانتبذت به مكانا قصيا، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا".

هل يمكن أن نتصور قوة الجهاز العصبى لهذه السيدة، إنها تتعرض لما هو أكثر من الهول، ثم تجد من تلده يحدثها، ويبشرها بأن الله

سيكون معه، قد لا تتعجب من حديث وليدها لها، فإذا كانت حملت منه دون رجل، فلن يكون مفزعا لها عندما تسمع هذا الوليد يتحدث، بل ويعدها أنه سيقف إلى جوارها.

حملت لنا مريم القرآنية قانونا آخر، يمكن أن يكون فيه حلا لمشاكلنا الإقتصادية كلها، فبعد أن وضعت جنينها، ورغم أنها كانت فى قمة الضعف والجوع، وفى حاجة لمن يساعدها، إلا أنها وفى وضوح هزت بجذع النخلة التى ولدت أسفلها: "وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا"، الرسالة واضحة، فحتى تأكل لابد أن تبذل مجهودا، لابد أن تقوم بعمل حتى ولو صغير.

من المعروف أنها لو قامت بهز النخلة من جذعها، فلن تهتز، ولن ينزل رطبها، لكن رمزية الفعل هنا طاغية، وهى أن تقوم بمجهود حتى لو كان بسيطا، لتحصل على طعامك، فعلتها السيدة مريم، ولا أدرى لماذا لا يفعلها الكثيرون، الذين يريدون أن يحصلوا على كل شئ، دون أن يفعلوا أى شئ.

يجرنا القرآن إلى الحقيقة التى يريد أن يثبتها، فهو يعترف بكل ما ورد عن السيدة مريم، فقد حملت من غير رجل، ووضعت صغيرها الذى نطق فى مهده، ليكتب شهادة براءة لوالدته، لكنه لا يعترف بألوهية المسيح، فبعد أن قال ما قاله " قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا، وسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا". هنا يتوقف عيسى عليه السلام عن الكلام، لتبدأ الرؤية القرآنية فى تثبيت أقدامها " ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون".

انحاز القرآن بشكل كامل لرواية الإنجيل عن مريم عليها السلام، فهى لن تضر العقيدة فى شئ، بل تأتى دليلا على المعجزات التى قدمتها السماء للأرض حتى تعترف بطلاقة قدرة الإله، لكنه الانحياز

الذى جاء على حقيقة المسيح، فالقرآن لا يقر له بألوهية، ولا ببنوة لله، ولكنه عبد الله ورسوله.

ولذلك يأتى فارق نفسى رهيب بين مريم القرآنية، ومريم التى تناولتها الكتب الأخرى، فمريم القرآنية توقفت آلامها بعد أن ولدت ابنها دون أب، متحملة ما قاله المجتمع عنها، لكن مريم التى صلب ولدها امتدت آلامها إلى اللحظة التى اخترقت فيه المسامير يدى ابنها وقدميه، وبالله عليكم أيهما أكثر ألما، المسيح الذى صلب، أم الأم التى ترى ابنها يتمزق أمامها وهى عاجزة دون أن تنطق أو تعترض أو تصرخ، لقد عانى المسيح ألما ماديا انتهى بصلبه، لكن مريم المقدسة تحملت ألما معنويا هائلا لا يقدر عليه أحد، لقد ماتت مقهورة، وهى التى كانت أما لنبى.

من أجل هذا تحولت مريم إلى ملجأ، كلما ضاقت الدنيا بالمصريين بحثوا عن مكان تتجلى فيه العدرا، هى لم تتجل بالفعل، فما جرى وما سوف يجرى ليس إلا وهما كاملا، لكن يظل المصريون مسلمين ومسيحيين ينتظرون تجلى العذراء على قبة كنيسة ولو فى حى صغير، فنحن جميعا فى حاجة لمن ينقذنا.

فى جملة واحدة دخلت مريم عند المصريين إلى مساحة الأولياء والقديسيين الذين يولون وجوهم شطر أضرحتهم، إنهم ينادون السيد البدوى، والقنائى، والشاذلى، وفى لحظة يأس كبرى ينادونها: يا عدرا.

يتشفع المسلمون عند ربهم بمن ظلمت وماتت مقهورة، علّه ينصرهم كرامة لها، ولذلك ستظل مريم العذراء حائطا يستند عليه الجميع، على أمل أن يحل نورها وتتجلى معجزاتها، انتظارها يطول، لكنه على أى حال سلوى للمتعبين وشفاء للمرهقين ودواء للمجروحين، فأن تنتظر ما لا يجئ وأنت تحلم بمجئيه، خير من أن تفقد الأمل فى كل شئ.

(٣)
سر السيدة عائشة

"أى بنية ، هونى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها".

أخرجت هذه العبارة من بطون الكتب التى روت حادثة الإفك التى تعرضت لها السيدة عائشة رضى الله عنها، وهى حية ترزق، كانت عصابة الإفك قد تقولت عليها، ما برأتها منه السماء، لكن أمها حاولت أن تخفف عنها هول ما تراه وتعانيه، خاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد جفاها قبل أن تنزل آية البراءة، بحثت الأم عن مبرر رأته مقنعا كأنثى.

فالسيدة عائشة بالفعل ليست امرأة حسناء فقط، ولكن زوجها الذى هو الرسول صلى الله عليه وسلم يحبها، بل يفضلها على أخريات من زوجاته، وكان طبيعيا أن تتعرض السيدة التى أحبها الرسول – كانت البكر الوحيدة التى تزوجها – إلى كثير من المكائد والتقولات الباطلة.

لم أستخرج هذه العبارة لأتأملها فقط، ولكن لأضعها فى صدر صفحة الموقف الذى تعرضت له السيدة عائشة على هامش ما فجره الداعية الشيعى ياسر الحبيب – الذى لم يتجاوز من العمر ٣١ عاما – من ملجئه السياسى فى بريطانيا.

لا تهمنى دوافع ياسر الحبيب التى جعلته يتجاوز فى حق السيدة عائشة، فمتطرفو الشيعة لا يحتارون فى أن يجدوا مبررا للهجوم عليها، فهم إن لم يجدوا ما يفعلونه، تطوعوا بالاعتداء عليها، وكأنهم يتقربون إلى الله بسب السيدة عائشة وإهانتها، صحيح أنهم لا يتورعون عن سب

الصحابة الكبار أمثال أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم جميعا، لكن هؤلاء يأتون فى مرتبة متأخرة جدا بالنسبة للسيدة عائشة، فهى صاحبة النصيب الأكبر والحظ الأوفر من سفالات وانحطاطات متطرفى الشيعة.

قبل سنوات وفى الكويت أيضا صدرت مجلة شيعية، تتهم السيدة عائشة فى شرفها وعرضها، وصفتها المجلة بأنها أم المتسكعين، والتهمة لها دلالتها المعروفة، وكان هذا الهجوم هو قمة السقوط الأخلاقى فى الهجوم على السيدة عائشة.

هاجت الدنيا على المجلة وأصحابها، واستغل البعض التهمة البغيضة التى وجهت للسيدة عائشة وقتها، وأعادوا نشرها مع ادعاء بسيط أنهم يدافعون عنها، رغم أنهم كرروا ما فعلته المجلة الشيعية، التى لم ترعَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم رحما ولا كرامة.

هبت النار وخرج أئمة السنة فى كل مكان ينددون بما جرى، ويهاجمون المجلة، وأخذت السلطات الكويتية إجراءات رآها البعض رادعة ضد المجلة، لكن الموضوع فى النهاية انتهى تماما، ولم يعد أحد يتذكره، وكأن كل أطراف الموضوع قامت بواجبها تماما، من هاجم السيدة عائشة هاجمها ونفسه راضية، ومن دافع عنها فعل ذلك معتقدا أنه قدم كل ما يستطيعه لنصرة زوج رسول الله، وذهب كل منهم إلى فراشه وهو ينام مستريح القلب قرير العين.

كان طبيعيا أن تتكرر الإساءة مرة أخرى إلى السيدة عائشة، قد تكون مصادفة أن الإساءة جاءت من الكويت، لكن من يعرف من هو ياسر الحبيب، ويقف على تحولاته وعلاقاته فى المجتمع الكويتى يدرك أن الأمر لم يكن مصادفة أبدا.

كان يمكن أن يظل ياسر الحبيب هذا – وهو متطرف شيعى من قمة رأسه حتى أخمص قدميه – فى الظل، لا يعرف أحد عنه شيئا، لكن

الشاب الذى درس العلوم السياسية، أدرك أنه يمكن أن يصبح نجما ساطعا، لو غامر وقال ما لم يستطع أن يقوله الآخرون.

أثناء بحثى عنه صادفتنى مدونة لصحفى كويتى هو داهم القحطانى، وفيما يبدو أنه يعرف ياسر جيدا، والمفاجأة أن ياسر وفى العام ١٩٩٦ وعندما كان عمره ١٧ عاما، كان يعمل صحفيا فى الملحق الانتخابى لجريدة الرأى العام (جريدة الراى حاليا).

فى هذه الفترة كما يقول القحطانى كان ياسر يتبنى الفكر الليبرالى، لكن على الطريقة الكويتية، فلم تخلُ نقاشاته من الحدة فى الطرح، والرغبة فى الصدام، ومع ذلك فقد كان يطرح فى الموضوعات التى كتبها خلال تلك الفترة وخلال السنة اللاحقة أفكارا تتعلق بترسيخ الديمقراطية والمساواة والتعايش ضمن مجتمع ديمقراطى لا فرق فيه بين طائفة وطائفة، أو بين ملة وملة، أو بين مذهب ومذهب.

استمر ياسر الحبيب على نهجه وأفكاره، وعرف عنه أنه يكتب قصصا أدبية، كانت تتميز بالمستوى العالى والرفيع فى آن واحد، لكن تميزه هذا لم يمكنه من الاستمرار فى جريدة الرأى العام، حيث طرد منها بعد أقل من عام، وكان السبب المعلن لذلك أنه تجاوز السياسة التحريرية للجريدة.

الليبرالية التى كان يعتنقها ياسر سرعان ما خفتت عندما دخل جامعة الكويت، فقد تحول بسرعة البرق إلى مرحلة من التدين السريع والقوى والمكثف فى الحسينية الكربلائية، والتى تتبع المرجع الشيعى السيد محمد الحسينى الشيرازى، ورغم أن المرجع الشيرازى كان يدعو للوحدة الإسلامية ولم يثبت أنه كان من دعاة الفرقة والتطرف، إلا أن ياسر كان متطرفا فى آرائه، وأعلن منذ البداية أن له رأيا خاصا فى هذه المسائل، لم يعلن عنه فى البداية، لكن الجميع كان يعرف أن ياسر مختلف.

نشاط ياسر الحبيب الطائفى بدأ بعد عامين تقريبا من دخوله الجامعة، فقد قام مع مجموعة من الطلاب الشيعة بنشر صورة لسيدنا الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وعلق لافتات عليها عبارات تثير الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة.

لم ينته مشوار ياسر الحبيب نهاية طبيعية، فأثناء إحدى محاضرات العلوم السياسية، رفع ياسر صوته محتجا على نظرية الخلافة الإسلامية، وفى اليوم التالى للمحاضرة قام بتوزيع منشورات فى الجامعة لنظرية الخلافة الإمامية، أما الأكثر من ذلك فهو نشره لتقرير لجنة تقصى الحقائق عن الغزو العراقى الذى صدر عن مجلس الأمة الكويتى عام ١٩٩٢، وتم منع نشره فى الكويت.

يقول القحطانى: "التحولات فى حياة ياسر الحبيب لم تتوقف، فقد بدا أن الرجل الذى كثف قراءاته الدينية يريد أن يكون رجل دين معمم، ولذلك قرر أن يتجاوز مراحل تاريخية يفترض أن يمر بها مشايخ المذهب الجعفرى، ولم يكن أمامه إلا أن يثير قضايا مسكوتا عنها فى المجتمع الكويتى، وهى قضايا يرفضها الشيعة من باب التقية".

من القضايا التى فضل ياسر الحبيب أن يلجأ إليها ليجذب إليه الأنظار سب سيدنا أبى بكر رضى الله عنه وأرضاه وأكرم منزلته، وسب سيدنا عمر رضى الله عنه وأرضاه وأكرم منزلته.

كانت البداية خلال محاضرة جرت فى منتصف العام ٢٠٠٣، ووزعت فى شريط كاسيت، دعا فيها الشيعة فى الكويت إلى التخلى عن التقية، وأن يجاهروا بسب أبى بكر وعمر، طالما أن هذا راسخ فى عقيدة الشيعة.

كان ياسر يشتم فى هذا الشريط الخليفة الأول أبا بكر رضى الله عنه، ويسب عمر رضى الله عنه، ويقوم بلعنهما فى الوقت الذى يمتدح فيه أبا لؤلؤة المجوسى قاتل عمر بن الخطاب، فلم يكن يتحدث عنه فى

هذه المحاضرة إلا بقوله: رضى الله عنه، بل طالب المسلمين بأن يزور كل منهم قبره لأنه قادر على أن يقضى حوائج قاصديه، ورغم أن هذا ليس مقبولا لا عقلا ولا منطقا ولا تاريخا، فقد قال ياسر ما هو ليس معقولا على الإطلاق وهو أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب قاما بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ما عاد لينسبه إلى السيدة عائشة فى محاضرته التى أثارت الأزمة، حيث ادعى أن السيدة عائشة هى من قتلت الرسول صلى الله عليه وسلم بالسم.

كانت هذه المحاضرة هى التى قصمت ظهر ياسر الحبيب، فقد تحولت إلى ملف قضائى، تم القبض عليه والحكم بسجنه فى محكمة الجنح، وحكم عليه القاضى عماد الياسين فى ١٩ يناير ٢٠٠٤ حكما بالسجن لعام واحد، ودفع غرامة قدرها ألف دينار، مع التنفيذ الفورى.

لم يكن هذا الحكم كافيا فيما يبدو، أو حتى مناسبا لما أثاره ياسر من لغط فى المجتمع الكويتى، ولذلك أعادت محكمة الجنح المستأنفة فى ٩ مارس ٢٠٠٤ القضية إلى النيابة العامة، على اعتبار أنها تعتبر جناية وليست جنحة، وهو ما جعل النيابة العامة تحولها بالفعل إلى محكمة الجنايات، والتى حكمت فى يونيو ٢٠٠٤، بسجن ياسر لعشر سنوات، وهو حكم لم يطبق، ففى رواية أن ياسر هرب إلى خارج الكويت بعد أن أطلق سراحه فى فبراير ٢٠٠٤ نتيجة لإدراج اسمه بالخطأ فى كشوف العفو الأميرى الذى يصدر عادة فى فبراير من كل عام، وهو شهر تحرير الكويت من الغزو العراقى، وأن ياسر استغل هذا الخطأ الإدارى وهرب بجلده من الكويت.

هناك رواية أخرى تؤكد أن ما حدث كان حلا سياسيا، فقد أرادت السلطات الكويتية أن تبعد ياسر عن أرضها حتى تتخلص من الفتنة التى يمكن أن يسببها وجوده فى السجن، فقد وردت معلومات من داخل السجن، أن هناك من بين السجناء من هدد بقتل ياسر انتقاما من إهانته وسبه للصحفيين.

من وقتها وياسر الحبيب يعيش فى لندن وهى المدينة التى لا تتورع عن إستضافة المتطرفين المسلمين من الجانبين السنة والشيعة، ولا تتورع أيضا فى أن تحاكمنا بعد ذلك بما يفعلونه.

أتاح له الجو السياسى المفتوح فى بريطانيا أن يعلن عن آرائه التى كان يقمعها، أو يمنعها شيوخه من الإعلان عنها فى الكويت، إن هناك بين متطرفى الشيعة من يحملون آراء غاية فى الانحطاط عن الصحابة الكرام، لكنهم لا يعلنون عنها، يرفعون شعار التقية فى وجه الجميع، لأنهم يعرفون أن الجهر بالأمر لن يكون لصالحهم.

بالمصادفة وجدت عددا من جريدة "الشيعة التى تصدر فى إنجلترا، العدد كان الثالث، ويحمل فيه ياسر الحبيب على السيدة عائشة كالعادة، لكنه يضيف إلى هجومه هذا هجوما طاغيا على الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، بل وينشر له صورة يقول: إن قناة الجزيرة نشرتها له فى إطار فيلم وثائقى، وهو هنا يكمل طريقه الذى بدأه فى الكويت بالمجاهرة بسب الصحابة، فطالما أنه يعتقد ذلك، فلماذا لا يعلنه.

الجريدة والافتتان بالإعلام والخروج فى شريط شاهده الكثيرون، يتحدث فيه ياسر مناشدا المسلمين فى كل مكان أن يتبرعوا لقناة "فدك"، وهى القناة التى هاجم السيدة عائشة من خلالها، كل ذلك يؤكد أننا أمام شخصية تتقن الظهور، بصرف النظر عن الوسيلة إلى ذلك.

أزمة ياسر الحبيب النفسية أو تطلعاته الذاتية يمكن أن يحلها مع نفسه، لكننا نقف أمام الجانب المعتم أو الأكثر إظلاما فى شخصيته، وهو جانب المتطرف الشيعى الذى يدخل معركة خاسرة من أجل لاشئ، لقد ظل فى خطبته الطويلة العريضة يبحث عن السيدة عائشة عن أسانيد تؤكد أنها رضى الله عنها فى النار، بل إنه يجزم دون أن أدرى من أين له بكل هذا اليقين أن السيدة عائشة الآن وفى الوقت الذى يتحدث فيه فى قعر الجحيم.

إن هناك طرفا فى شخصية المتطرف لا يراه أحد، وهو أن هذا الشخص يعانى من خلل عقلى، إنه يرى أنه على صواب والجميع على خطأ، فالمختل يرى نفسه العاقل الوحيد وسط مجموعة من المجانين، بأى منطق يقول ياسر ما يقوله، وكيف يحكم أن هذا فى الجنة وهذا فى النار، رغم أن صاحب الرسالة نفسه لم يفعل أكثر من أنه بشر بعض أصحابه بأنهم من أهل الجنة، وحددهم بالاسم.

تطرف ياسر الحبيب لم يمر مرور الكرام على متطرفى السنة، الذين لا يكلون ولا يملون من البحث عن أسانيد وأدلة يكفرون بها الشيعة ويخرجونهم من الملة تماما، لقد أعلنت جماعة "التوحيد والجهاد" (أعلنت اسمها ولم تعلن عن هويتها) أنها ترصد خمسة عشر ألف جنيه استرلينى لمن يقطف رأس ياسر الحبيب، بل إن بعض منتديات السنة لم تتورع عن الانتقام من ياسر بطريقته، فقد نشرت صورا لأخته شبه عارية، وتعاملوا على أن الله انتقم لمن سب السيدة عائشة بفضح أخته، فكيف له أن يخوض فى أعراض أمهات المؤمنين، ويترك عرض أخته هكذا.

الحرب بين السنة والشيعة ليست عاقلة أبدا، إذ كيف لحرب أن تكون عاقلة وهى تدور بين متطرفين ويغذيها مجانين، لقد قامت السلطات الكويتية بإسقاط الجنسية عن ياسر، كما أنها كلفت الإنتربول الدولى بتعقبه، فهو بالنسبة لها مطلوب لتنفيذ حكم قضائى صدر ضده بالسجن عشر سنوات، وأعتقد أن الكويت لن تتراجع عن الإيقاع بياسر الحبيب، لأنها تعتبره الآن عارها الذى لابد أن تتخلص منه.

لكن بعد أن تنتهى هذه الحرب، كما انتهت فى المرات السابقة، تنطوى صفحات الأطراف جميعا، تخرج المظاهرات، تصدر البيانات عن المؤسسات الدينية السنية، يخرج الشيوخ يبكون ويتباكون على ما يفعله الشيعة، ينتفض محامو الشهرة الجدد ويطالبون بأن توقف شركة النايل سات بث قناة فدك التى تذيع خطب ياسر الحبيب،

فيجدوا أن قناة فدك أصلا ليست موجودة على النايل سات، ولكن على شركة نور سات، لكنهم يشعرون أنهم قدموا ما عليهم والسلام.

بعد أن ينتهى كل ذلك، ستظل السيدة عائشة هى الجريحة، التى أهانها الشيعة كما لم يهينوا أحدا قبلها، ولن يهينوا أحدا بعدها فيما أعتقد، هى الجريحة التى خذلها السنة وشيوخ السنة وأئمة السنة، لم يردوا غيبتها كما يقولون، وقفوا متفرجين، أو لنكن أكثر دقة مكتفين ببعض البيانات التى تشجب وتدين وكفى الله المؤمنين شر القتال أو حتى خيره.

ليسمح لى السادة الذين وقفوا يتباكون على قبر السيدة عائشة رضى الله عنها، أن أنقل لهم ما استند إليه ياسر الحبيب فى الإساءة إلى السيدة عائشة، يقول ببساطة أنه يأخذ من كتب السنة، يقرأ لجمهوره الذى يستطيب ما يقوله من كتاب البخارى، ويخرج من هذه الروايات بأن السيدة عائشة هى من قتلت النبى، وأنها حتما ستكون فى النار لأنها عصت الرسول.

إننا نعطى للمتطرفين سواء كانوا أمثال ياسر الحبيب الشيعى أو القمص الملعون زكريا بطرس الحجة والذريعة لأن يتقولوا علينا ما يريدون، وكأن الإمام البخارى أو غيره من وراة الأحاديث أعز على المسلمين من الرسول وآل بيته.

إن السيدة عائشة هى الشخصية الأروع فى تاريخ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، كانت ناقلة الدين عنه إلى النساء، تحملت ما لا تتحمله امرأة أخرى، فقد دخلت بيت الرسول صلى الله عليه وسلم بعد السيدة خديجة، ثم شهدت دخول الأخريات جميعا، كانت تعرف أن الرسول لا يعمل شيئا إلا من أجل الإسلام، لكنها فى النهاية كانت بشرا، ومع ذلك حافظت للرسول على بيته، وأدت ما عليها دون زيادة أو نقصان.

لا يمكن لأحد أن يقبل التجريح فى السيدة عائشة، ليس لأنها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذه تكفيها، لكن لأنها هى السيدة عائشة المرأة الأحن والأحب إلى قلب النبى، وكم كانت أمها بليغة عندما

لخصت لها حياتها وما سيحدث لها، امرأة جميلة ، زوجها يحبها – وهو بالمناسبة ليس كأى زوج، إنه النبى – لديها ضرائر، فلابد أن يكثرن عليها ويكثر عليها الناس.

لكن يبدو أن الناس تكاثروا بما لا تطيقه أم المؤمنين، وأعتقد أنه لم يعد كافيا أن نهتف ونشجب وندين كل هجوم عليها، ثم نركن إلى وسائدنا ننام هانئين البال مطمئنى الفؤاد، إن تاريخنا يستحق أن نبحث عن طريقة نصونه بها، وليختفى عن وجوهنا كل المتطرفين والمنسحقين للماضى، فبإصرارهم على ما جاءنا فى الماضى تهان زوجة الرسول، ويهان صحابته الذين صنعوا مجد الإسلام إلى جواره، فهل نستأذن هؤلاء أن يصمتوا، وهل نستأذنكم جميعا فى أن نفكر، ما الذى يمكن أن نفعله لمناصرة المرأة التى سألوا رسول الله: من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة. فسئل: ومن الرجال؟ فقال أبوها.

(٤)
السيدة عائشة فى رسالة شيعية

قالها الرسول صلى الله عليه وسلم هكذا: "كمل فى الرجال كثير، ولم يكمل فى النساء إلا ثلاث، مريم بنت عمران وآسية زوجة فرعون وخديجة بنت خويلد".

أين عائشة رضى الله عنها إذن، لم يتركنى ما قاله الرسول كثيرا، اكتمل الحديث وتمت الرواية ، فقد أعطاها ما تستحقه: "وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام".

لست أمام رجل يدلل زوجته، فيمنحها أحيانا ما لا تستحقه حتى ترضى، لكنى أمام رسول أرسلته السماء، ولا يمكن أن ينطق إلا صدقا، كما أنه لم يكن يوزع العطايا على الغادين والرائحين بغير حساب، بل كان يضع الكلمات فى مواضعها تماما، ولذلك فقد وضع عائشة الموضوع الذى تستحقه، والذى رآه هو كذلك.

فضلها على النساء كفضل الثريد على الطعام، ، وهو معنى يعرفه الفقراء أكثر.

هل تريدون ما هو أكثر من ذلك؟

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لها: إنى أعرف غضبك إذا غضبت ، ورضاك إذا رضيت، قالت له: وكيف تعرف ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا غضبت قلت: يا محمد، وإذا رضيت قلت: يا رسول الله.

وحتى تكتمل الصورة ، لابد من بعض ما قالته السيدة عائشة واصفة المشهد الأخير فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

تقول عائشة: "مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى ويومى، وبين سحرى ونحرى، فدخل عبد الرحمن بن أبى بكر ومعه سواك ثم دفعته إليه، فاستن كأحسن ما رأيته مستنا قط، ثم ذهب يرفعه إلى مسقط يده، فأخذت أدعو الله عز وجل بدعاء كان يدعو به جبريل عليه السلام، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به فى مرضه ذلك، فرفع بصره إلى السماء وقال: الرفيق الأعلى ، الرفيق الأعلى، وفاضت نفسه، فالحمد لله الذى جمع بين ريقى وريقه آخر يوم من أيام الدنيا".

إننى لا أحاول بالطبع أن أرسم صورة قلمية للحياة الزوجية أو العاطفية بين الرسول صلى الله عليه وسلم والسيدة عائشة رضى الله عنها، فهى معروفة، وأعتقد أن الدكتورة عائشة عبد الرحمن أبدعت فى تصوير هذه الحياة فى كتابها الرائع والرائد "زوجات الرسول"، وهو الكتاب الذى صدرت منه طبعات كثيرة، ولو أنصف من يتحدثون من على المنابر عن الحياة الخاصة للرسول لرجعوا لهذا الكتاب ونهلوا منه دون حرج.

لكننى أحاول فقط أن أضع السيدة عائشة رضى الله عنها فى المكان والمساحة التى تستحقها وتحتلها ليس عند الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن فى التاريخ الإسلامى كله، ، تفاعلا وسيرة، لقد رحل الرسول صلى الله عليه وسلم، أما هى فقد بقيت بعده أكثر من ٤٧ عاما كاملة، فقد توفيت ١٦ رمضان من العام ٥٨ هجرية، أى أنها عاشت عمرا كاملا بعد الرسول.

كان طبيعيا أن تصبح السيدة عائشة هى السيدة الأولى فى الدولة الإسلامية، أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان طبيعيا أيضا أن تكون السيدة الأولى بعد وفاته، ليس فى أمور الحكم، فقد تركتها لأهلها، لكنها كانت مرجعية دينية، ومفتية، يأخذ عنها المسلمون دينهم، ولم يكن أحدا منهم مخالفا لما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، حين أشار إليها ذات يوم قائلا: خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء.

لقد تضاربت المصادر وتناقضت فيما جرى على السيدة عائشة وما جرى منها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو التضارب الذى نعيش ماسأته الآن، من هجوم متدنٍ على مقامها، وهو منطق شيطانى، فلو فرضنا أن السيدة عائشة تورطت فى أعمال السياسة، وأخطأت، فهل معنى ذلك أن نهيل عليها التراب، أن نلغى كل ما قامت به فى حياة الرسول؟

ثم بأى منطق يحاسب المتطرفون السيدة عائشة، لقد رفعت السماء يدها عن الأرض يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يعد بين المسلمين معصوم من الخطأ، أو محروس من الوقوع فى الزلل، وهى فى النهاية بشر تجتهد، ومن حقها أن تفوز بحق ثواب الاجتهاد، فإذا كان ما فعلته صحيحا فلها أجران، وإذا كان ما فعلته غير ذلك فلها أجر واحد.

تعالوا نضيق المساحة أكثر وأكثر ونسأل عن متطرفى الشيعة الذين يسيئون للسيدة عائشة، وهو سؤال تتضح ملامحه بعد أن نستعرض نص رسالة جاءتنى ضمن ردود الفعل الكثيرة التى استجابت لدعوتى إلى حملة لمناصرة السيدة عائشة، الرسالة كتبتها زينب عبد الله، التى لم تكشف عن أى من ملامح شخصيتها إلا أنها شيعية حائرة .

تقول تحت عنوان: ليس دفاعا عن الشيعة ولكن بحثا عن الحقيقة، : "من حقى أن أحصل من رجال الدين السنيين فى مصر على ردود عن الاتهامات الموجهة من بعض الشيعة للسيدة عائشة، فقد اكتفيت من شجبهم واستنكارهم واحتجاجهم وغضبهم، وحان الوقت ليردوا على هذه الاتهامات بالحجج ويواجهوا هؤلاء الشيعة بالعقل، ويفيدونا أنا وغيرى إلا إذا كانوا لا يملكون أدلة أو حجج".

وتخترق زينب الأزمة أكثر وتقترب منها أكثر وأكثر، تقول: "تمنيت أن تفيدنا وتمدنا بمعلومات تاريخية إسلامية عن حقيقة الفتنة التى حدثت بسبب السيدة عائشة، وتسببت فى قتل على الأقل عشرون ألف

من المسلمين فى موقعة الجمل، كذلك عن حقيقة بغضها لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه، كذلك عن كذبها (واللفظ لصاحبة الرسالة) وهى كما تقولون الصديقة بنت الصديق على رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أن العسل الذى يأكله عند زوجة أخرى يجعل رائحة فمه كريهة ومنفرة فتوقف عن أكله حتى عاتبه الله سبحانه وتعالى بنزول الوحى بالقرآن: "يا آيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم"، فكيف تطلقون عليها لقب الصديقة وهى فى كتاب الله ليست كذلك؟".

لا يزال عند زينب عبد الله ما تقوله: "أما عن السيدة فاطمة رضى الله عنها وأرضاها والتى بشرها أبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها سيدة نساء الجنة، ما حقيقة ما يقوله بعض الشيعة بأن عمر بن الخطاب كسر ضلعها عندما دفعها ليدخل إلى منزلها، وأن أبو بكر الصديق حرمها من حديقة كان أهداها لها الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنها أوصت بأن تدفن فى الليل وألا يسير أحد غير أهلها فى جنازتها أو يعلم قبرها سوى عائلتها، وأنها رفضت تولى أبو بكر الصديق الخلافة لعلمها بأحقية زوجها على بن أبى طالب كرم الله وجهه للخلافة، كما أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه لم يبايع أبو بكر الصديق إلى أن توفيت فاطمة عليها السلام، ولم يفعل ذلك سوى لدرء الفتنة، هل كانت فاطمة على خطأ؟ هل طالبت بما لا يحق لها، أو اختلقت حادثة كسر ضلعها، أو أنها غضبت وماتت مكلومة من الحزن دون وجه حق؟".

وتواصل صاحبة الرسالة الشيعية كلامها: "وماذا عن خطبة الغدير التى قال فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام للمسلمين، وثابت فى كتب السنة: "من كنت مولاه فعلى مولاه"، وبايع كل الحاضرين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى هذا اليوم بالولاية، فلماذا تجاهل المسلمون هذا الحديث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وخالفوه، وتمت بيعة

الخلافة لأبى بكر فى غياب على بن أبى طالب كرم الله وجهه؟".

وتختتم زينب عبد الله رسالتها قائلة: "انتقادات واتهامات فى حاجة لتوضيح ومناقشة حتى لا تتوه خاصة أنه ومع تقدم وسائل الاتصال وتنوع الإعلام لم يعد يخفى علينا شئ، كنا فى الماضى نسمع أن الشيعة طائفة تدعى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه هو الله سبحانه وتعالى، والبعض منا يعتقد بأنه أحق بالرسالة، وأن سيدنا جبريل عليه السلام أخطأ ونزل بالوحى على محمد عليه الصلاة والسلام بدلا من على رضى الله عنه، اليوم لا مجال للضحك علينا بمثل هذا الكلام، حيث أنى من متابعتى لبعض مواقع وقنوات الشيعة الذين يتبعون المذهب الجعفرى أو الاثنى عشرى أصبح لدى فضول لمعرفة حقيقة الخلافات التاريخية التى بيننا، وإذا لم يقم رجال الدين السنيين بالرد بالحجج والأدلة سيتركون المجال للشيعة لتأكيد اتهاماتهم وادعاءاتهم، أرجوكم واجهوا الموقف بعقلانية لا بعاطفة لا تخدم القضية".

لقد حاولت صاحبة الرسالة أن تتنصل من شيعيتها، حاولت أن تظهر كمسلمة مغلوبة على أمرها، لكنها تضع الجرس فى رقبة علماء المسلمين السنة، فهناك وقائع ثابتة ولابد من الرد عليها.

أعرف أن رسالة القارئة الشيعية فيها الكثير من التجاوز فى حق السيدة عائشة، لكن السؤال الذى أجدنى أسيرا له دون أن أستطيع التحرر منه بسهولة هو: من أين يستقى متطرفو الشيعة بذاءاتهم وجهالاتهم وشتائمهم التى يقذفون بها السيدة عائشة؟

لقد كانت مفاجأة للرأى العام الإسلامى السنى – إذا جاز هذا التعبير بالطبع – أن يعلن المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية فى إيران "على خامنئي" تحريمه القاطع والبات والتام والنهائى للإساءة للسيدة عائشة رضى الله عنها، وليس السيدة عائشة فقط، ولكن حرم النيل من الرموز الإسلامية لأهل السنة والجماعة.

لم تأت فتوى خامنئي من تلقاء نفسها، فهو يعرف أن الهجوم على السيدة عائشة ممتد منذ سنوات طويلة، بل هو تراث تاريخى عند طوائف عديدة من الشيعة، ولكنها جاءت استجابة مباشرة كما أعلنت ذلك وكالة أنباء "مهر" الإيرانية – وهى وكالة أنباء شبه رسمية – من أن الفتوى جاءت ردا على نداء وجهه جمع من علماء ومثقفين سعوديين عقب الإساءات التى وجهها رجل دين شيعى مقيم فى لندن – هو الكويتى ياسر الحبيب – إلى أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها –، ورضى الله عنها هذه من عندنا وليست من لدن وكالة الأنباء الإيرانية، فهى لا تقول ذلك.

هنا فى مصر رحب شيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب بفتوى خامئنى، بل وصفها بالفتوى الكريمة، وأصدر بيانا أشار فيه إلى أن الفتوى تصدر عن علم صحيح وإدراك عميق بخطورة ما يقوم به أهل الفتنة وتعبر عن الحرص على وحدة المسلمين.

وكان لابد أن يدلى الدكتور الطيب بدلوه فقال فى بيانه نصا: "إننى من موقع العلم ومن واقع المسئولية الشرعية أقرر أن السعى لوحدة المسلمين فرض وأن الاختلاف بين أصحاب المذاهب الإسلامية ينبغى أن يبقى محصورا فى دائرة الاختلاف فى الرأى والاجتهاد بين العلماء وأصحاب الرأى والا يمس وحدة الأمة.

ولم ينه الدكتور الطيب بيانه إلا بفتوى تؤكد على أن كل من يزكى نار الفتنة بين المسلمين آثم ومستحق لعقاب الله وإنكار الناس.

لا يمكن لأحد أن يشكك فى نوايا على خامئنى، ولا فى قدرة شيخ الأزهر على فهم فتواه، لكن الفتوى التى صدرت بعد نداءات سعودية ليست أكثر من فتوى سياسية، يمكن من خلالها تمرير موقف على وشك الانفجار بين السنة والشيعة فى العالم، والسبب فيه ليس رجل دين شيعى إيرانى هذه المرة، ولكنه شاب كويتى أرعن يكاد لا يفقه ما يقوله.

لكن هذا السجال بين صاحب الفتوى ومن أثنى عليها، يجعلنا أمام مواجهة أخطر، وهى هل فتوى خامنئي ستكون ملزمة لكل رجال الدين الشيعة ومن كل المذاهب فى عدم الإساءة إلى السيدة عائشة رضى الله عنها، وهل الفتوى ستكون بداية لأن يقوم علماء الشيعة بتنقية كتبهم مما فيها حول السيدة عائشة ودورها وتاريخها وسلوكها؟، كل هذه أسئلة منطقية ومشروعة.

أما المنطقى والمشروع أكثر، فكما ألمحت صاحبة الرسالة الشيعية، وكما قال ياسر الحبيب الشيعى الشقى الذى هاجم السيدة عائشة كأشد ما يكون الهجوم، أن كل ما يقال عنها مأخوذ نصا من كتب السنة، ومن كتب الحديث التى يعتمدها السنة، وأهمها كتاب البخارى، وهو ما يجعلنا ندور فى نفس الحلقة المفرغة مرة أخرى، وهو: ما الذى يجب أن نفعله فى تراثنا المتراكم، وهو التراث الذى يمثل إساءات بالغة للرجال الذين حملوا الإسلام على صدورهم إلى العالم كله؟

لقد كان غريبا مثلا أن يرفض علماء السنة ورجال السلف نتيجة بحث قال بأن الرسول لم يتزوج السيدة عائشة وهى طفلة، ولكن تزوجها وهى فى الثامنة أو التاسعة عشر من عمرها، واستمسكوا بما رواه البخارى فى صحيحه عن عمر السيدة عائشة وقت زواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو التاسعة من عمرها فقط، وكأن الإمام البخارى أعز عند الله من الرسول ومن زوجاته.

أعرف أن القارئة الشيعية ستحظى بأكبر قدر من الشتائم والسباب واللعنات، لأنها تجرأت وقالت ما قالت على السيدة عائشة، ولن يلتفت أحد لأن ما قالته ليس إلا أسئلة تريد الإجابة عليها من علماء السنة، وأعتقد أن كثيرا من المسلمين السنة يحتاجون إجابة عليها، ليس من باب أنهم يصدقون ولكن من باب رغبتهم فى إنهاء التناقض بين ما يعرفونه عن السيدة عائشة وتاريخها وما تبثه طوائف الشيعة المتطرفة، وأعتقد أن هذا من حق الجميع.

لقد طالبت قرائى أن يساهموا فى حملة الدفاع عن السيدة عائشة، هناك من كتب وهناك من اكتفى بالدعاء – الذى نرجو من الله أن يكون فى ميزان حسنات الجميع – لكن لم يفكر أحد فى اقتراح واحد ندعم به الحملة، ما الذى يمكن أن نفعله، ويكون أمرا ملموسا، وليس مجرد شتائم وسجال عنيف بين متطرفين، يهدأ أحيانا وسرعان ما يعود إلى الاشتعال مرة أخرى.

إننى أحمد لشيخ الأزهر أنه أصدر بيانا يثنى على فتوى على خامنئى، لكن أما كان من الأولى أن يدعو شيخ الأزهر إلى مؤتمر علمى عالمى حول حياة وتاريخ السيدة عائشة رضى الله عنها، مؤتمر تقدم فيها أبحاث من مختلف الاتجاهات، يشارك فيه علماء السنة وعلماء الشيعة، يجلسون على مائدة واحدة، يتبادلون فيما بينهم الشبهات التى تحوم حول التاريخ الإسلامى لتفنيدها والتخلص منها، وإعلان ذلك على المسلمين جميعا، أما أن تمضى الأمور هكذا، يتم تسكينها والسلام، فإن النار لن تنطفئ أبدا، لن تهدأ أبدا، وكما خرج ياسر الحبيب المطارد من بلده ليسب السيدة عائشة سيخرج آخر، بل وسيخرج آخرون.

إننا نتقرب إلى الله بالدعوة إلى تنقية تراثنا، فلماذا لا يفعلها علماؤنا الأفاضل، إنها دعوة لوجه الله وحده، وأعتقد أنها دعوة لا يجب أن ترد أبدا.

(٥)
أسطورة مصحف فاطمة

فى مدينة «قم» الإيرانية حيث الحوزة العلمية العالمية للمسلمين الشيعة دخل أحد علماء السنة إلى إحدى المكتبات، توجه إلى الركن الذى تباع فيه المصاحف وأخذ يفتحها ويقلبها بين يديه، فسأله صاحب المكتبة عما يريده وما الذى يبحث عنه فى هذه المصاحف؟، فرد عالم السنة بأنه يريد أن يتأكد من وجود مصحف باسم السيدة فاطمة الزهراء يطلق عليه الشيعة مصحف فاطمة، وهل يوجد لدى الشيعة قرآن آخر غير القرآن الذى يعرفه المسلمون؟

لم يجد عالم السنة مصحفا مكتوبا عليه اسم فاطمة، بل كانت كل المصاحف هى نفسها التى يتم تداولها بين المسلمين فى كل مكان.

حادثة أخرى كان بطلها هذه المرة أحد علماء الشيعة، قام بزيارة مفتى أحد البلدان الإسلامية، سأله المفتى عن اعتقاد الشيعة بمصحف فاطمة، فأخرج له العالم الشيعى من جيبه مصحفا كان يحتفظ به وهو بخط عثمان طه، وقال للمفتي: لقد ربانى أبواى على قراءة هذا المصحف فقط ولا شيء غيره.

لكن مع ذلك كله يظل فى الصدر شيء.

ففى كتابه «النداء الأخير» قال الخميني: نحن نفخر بأن مصحف فاطمة ذلك الكتاب الملهم من قبل الله تعالى للزهراء المرضية.

كلام الخمينى خطير جدا، فهو يعترف صراحة بأن لدى الشيعة مصحف فاطمة، ليس هذا فقط بل إنه يعتبر هذا المصحف كتاباً ألهمها

الله إياه، ولاندرى مقصده فهل يعنى أن السيدة فاطمة الزهراء كانت تتلقى الوحى من الله عن طريق جبريل عليه السلام، وإذا كان هذا حدث فهل تلقت هذا الوحى فى عصر الرسول أم بعد وفاته، أم أنه قصد الإلهام بأن الله قذف المعنى فى قلبها فكتبت كتابا أطلقوا عليه مصحف فاطمة؟

هذه التساؤلات الكثيرة كانت مثار اهتمام دراسة علمية مهمة قام بها الباحث أكرم بركات وأصدرها فى كتاب: "حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة".

يقول الكتاب فى مقدمته: مصحف فاطمة ثبت وجوده بالطرق والأسانيد الصحيحة، وعليه فالاعتقاد به سليم وصحيح، لذا فما أثير حوله من شبهات لاينال مقامه العالى واعتباره من قبل البعض نقطة سلب وتهمة لا يضعف شخصية المعتقد وثباته، بل هو محل افتخار له طالما أنه يسجل كرامة لسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضى الله عنها.

الأحاديث النبوية التى وردت فى الكتب الصحيحة وردت بها روايات عديدة بها إشارات لوجود «مصحف فاطمة»، منها مثلا ما رواه محمد بن مسلم عن الإمام جعفر الصادق قال: وخلفت فاطمة "مصحفى فاطمة"، وما رواه على بن سعيد عنه عليه السلام: وعندنا والله مصحف فاطمة ما فيه آية من كتاب الله.

قد تكون هذه الأحاديث تحديدا هى التى تقف وراء اعتقاد الناس بأن هناك مصحفاً للسيدة فاطمة، على اعتبار أن لفظ مصحف خاص بالقرآن الكريم، وعليه فمصحف فاطمة يعنى قرآن فاطمة، وبما أن روايات هذا الكتاب تصفه بأنه: فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، فإن هذا يعنى أن الشيعة يعتقدون بكون القرآن الموجود قد نقص منه الكثير من الآيات.

لكن الباحث أكرم بركات يرفض من البداية أن يكون لفظ مصحف يطلق على القرآن الكريم فقط، فمعنى المصحف فى لغة العرب هو الكتاب المجلد، وبهذا المعنى كان يطلق على كل كتاب يحمل هذه

الصفة، ولذا كان يسمى الإنجيل بالمصحف، وبعد مجيء الإسلام اشتهر لفظ المصحف فى معنى القرآن الكريم، وقد يكون ذلك لأن القرآن أكثر الكتب وجودا بين المسلمين، لكن هذه الشهرة الحاصلة لم تلغ استعمال لفظ المصحف فى غير القرآن من الكتب، بل ظل يستعمل بمعنى الكتاب المجلد على لسان الصحابة والتابعين وعلى لسان علماء المسلمين المتقدمين منهم والمتأخرين، وبهذا المعنى تحديدا أطلق لفظ المصحف على كتاب نسب إلى السيدة فاطمة الزهراء وهو ليس بقرآن.

المفاجأة أن علماء الشيعة أنفسهم لم يبحثوا الأمر كما ينبغي، بل اقتصروا على رد الشبهات التى أثيرت من حوله، خاصة الشبهة التى تحوم حوله بأنه مصحف فيه بعض الآيات القرآنية التى رفعت من القرآن الكريم، وحاولوا الإجابة عن أسئلة عديدة من نوعية: ما هو محتواه؟، ومن أملاه؟ ومن كاتبه؟

الإجابات عن الأسئلة نقرأ فى ثنايا سطورها أن هناك كتاباً منسوباً إلى السيدة فاطمة الزهراء، ويطلق عليه «مصحف»، لكنه لا يتضمن آيات قرآنية منزلة من السماء، فهناك من يذهب إلى أن مصحف فاطمة يتضمن أمثالا وحكماً ومواعظ وعبرا وأخبارا ونوادر، وقد ألفه أمير المؤمنين على بن أبى طالب وقدمه للسيدة الزهراء ليعزيها به عن سيد الأنبياء أبيها صلى الله عليه وسلم.

وهناك من يقول إنه كتاب يتضمن معارف فى التشريع والأخلاق والآداب وما سيحدث فى مستقبل الزمان من الأحداث والتقلبات وقد جمعت الزهراء هذا الكتاب مما سمعته من أبيها وزوجها صلى الله عليه وسلم، لكن هناك من يذهب به الشطط ويقول إن مصحف فاطمة هو كتاب ملهم من قبل الله تعالى لها، والثانى أملاه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا الخلط الكبير ربما يعود إلى ان هناك روايات عديدة عن كتب نسبت للسيدة فاطمة، منها مثلا كتاب فى الأخلاق، فقد ذكر ابن

جرير الطبرى عن ابن مسعود أنه قال: جاء رجل إلى فاطمة فقال يا ابنة رسول الله، هل ترك رسول الله عندك شيئا؟ فقالت: يا جارية هات تلك الحريرة، فطلبتها فلم تجدها، فقالت ويحك اطلبيها، فإنها تعدل عندى حسنا وحسينا فطلبتها، فإذا هى قد قممتها فى قمامتها فإذا فيها، قال محمد النبي: ليس من المؤمنين من لم يأمن جاره بوائقه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت، إن الله يحب الخير الحليم المتعفف، ويبغض الفاحش الضنين كثير السؤال الملحف، إن الحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة وإن الفحش من البذاء والبذاء فى النار.

ليس لدى السيدة فاطمة الزهراء كتاب إذن كما يتصور البعض، فهو لفافة مكتوب فيها بعض من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم، فكما لها كتاب فى الأخلاق، لها كذلك كتاب فى التشريع به بعض الأحكام التى وردت فى القرآن الكريم، لكن أهم ما نسب للسيدة فاطمة هو "اللوح".

أنقل لكم أولا نص اللوح: هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لمحمد نبيه ونوره وسفيره وحجابه ودليله نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين، عظم يا محمد أسمائى واشكر نعمائى ولا تجحد آلائي، إنى أنا الله لا إله إلا أنا قاصم الجبارين ومديل المظلومين وديان الدين، إنى أنا الله لا إله إلا أنا، فمن رجا غير فضلى أو خاف من عدلى عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، فإياى فاعبد وعلى فتوكل انى لم أبعث نبيا فأكملت أيامه وانقضت مدته إلا جعلت وصيا وإنى فضلتك على الأنبياء وفضلت وصيك على الأوصياء وأكرمتك بشبليك وسبطيك حسن وحسين، فجعلت حسنا معدن علمى بعد انقضاء مدة أبيه، وجعلت حسينا خازن وحيي، وأكرمته بالشهادة وختمت له بالسعادة، فهو أفضل من استشهد وأرفع الشهداء درجة، جعلت كلمتى التامة منه، وحجتى البالغة عنده، وزين أوليائى الماضين، وابنه شبه جده المحمود الباقر علمى والمعدن لحكمتي، سيهلك

المرتابون فى جعفر، ولأسرته فى أشياعه وأنصاره وأوليائه، أتيحت بعد موسى فتنة عمياء حندس، لأن خيط فرضى لا ينقطع وحجتى لا تخفى، وان أوليائى يسقون بالكأس الوفي، من جحد واحدا منهم جحد نعمتى، ومن غير آية من كتابى فقد افترى علي، ويل للمفترين الجاحدين عند انقضاء مدة موسى عبدى وحبيبى وخيرى فى على وليى وناصرى، ومن أضع عليه أعباء النبوة وامتحنه بالاضطلاع بها يقتله عفريت مستكبر يدفن فى المدينة التى بناها العبد الصالح، إلى جنب شر خلقه، لايؤمن عبد به إلا جعلت الجنة مثواه وشفعته فى سبعين من أهل بيته كلهم استوجبوا النار، وأختم بالسعادة لابن على وليى وناصرى والشاهد فى خلقى وأمينى على وحيي، أخرج منه الداعى إلى سبيلى والخازن لعلم الحسن، وأكمل ذلك بابنه (م ح م د) رحمة للعالمين، عليه كمال موسى وبهاء عيسى وصبر أيوب فيذل أوليائى فى زمانه وتتهادى رءوسهم كما تتهادى رءوس الترك والديلم فيقتلون ويحرقون ويكونون خائفين مرعوبين وجلين تصبغ الأرض بدمائهم ويفشو الويل والرنة فى نسائهم أولئك أوليائى حقا، أدفع كل فتنة عمياء حندس وبهم أكشف الزلازل وأدفع الآصار والغلال أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

وعن هذا اللوح نقرأ ما جري،

فقد سأل الإمام الباقر جابر بن عبد الله الأنصاري، قال له: إن لى إليك حاجة فمتى يخف عليك أن أخلو بك فأسالك عنها، فقال له جابر: أى الأوقات أحببته، فخلا به فى بعض الأيام، فقال له: يا جابر أخبرنى عن اللوح الذى رأيته فى يد أمى فاطمة بنت رسول الله، وما اخبرتك به أمى أنه فى ذلك اللوح مكتوب، فقال جابر: أشهد أنى دخلت على أمك فاطمة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهنيتها بولادة الحسين، ورأيت فى يدها لوحا أخضر ظننت أنه من زمرد ورأيت فيه كتابا أبيض شبه لون الشمس، فقلت لها: بأبى أنت وأمى يا بنت رسول الله

ما هذا اللوح؟ فقالت: هذا لوح أهداه الله إلى رسوله، فيه اسم أبى واسم بعلى واسم ابنى واسم الأوصياء من ولدى وأعطانيه أبى ليبشرنى بذلك.

يقول جابر: فأعطتنيه أمك فاطمة فقرأته واستنسخته، فقال له الإمام الباقر: فهل لك يا جابر أن تعرضه علي، قال: نعم، فمشى معه الباقر إلى منزله، فاخرج صحيفة من رق، فقال: يا جابر انظر فى كتابك لأقرأ أنا عليك، فنظر جابر فى نسخته فقرأه الإمام الباقر فما خالف حرف حرفا فقال جابر: اشهد بالله انى هكذا رأيته فى اللوح مكتوبا.

هذا الكتاب مهم جدا للشيعة؛ فهو ينص صراحة على أسماء أئمتهم، ولا مانع لديهم إذن من تقديسه والمبالغة فى الاحتفاء به وإضفاء بعض من الأسطورة على ما جاء فيه، فليس ما جاء به من عند السيدة فاطمة ولا من عند زوجها الإمام على ولا من عند الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه نزل من السماء رأسا وأهداه الرسول لابنته، وفى ذلك ما فيه من الإشارات لارتباط أئمة الشيعة بالسماء رأسا، ولذلك فهذا اللوح مهم جدا للدرجة التى تجعل الشيعة يعلقون فى بيوتهم ومحلاتهم لوح فاطمة، وكأن اللوح قرآنهم الذى به يدينون، وإذا كان الشيعة يفعلون ذلك مع اللوح فماذا يفعلون مع مصحف فاطمة؟

والسؤال الأن: هل كانت السيدة فاطمة الزهراء تتلقى الوحى من السماء؟ وهل كان هناك فعلا مصحف منسوب إلى بنت «الرسول صلى الله عليه وسلم»؟ وهل معنى ذلك مثلا أنها كانت تتلقى الوحى من السماء؟ مثلها فى ذلك مثل الرسول الذى كان يأتيه جبريل عليه السلام بخبر السماء؟

فى دراسة الشيخ أكرم بركات عن حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة، أورد بعض الروايات التى تشير ولو من بعيد إلى أن ما نسب للسيدة فاطمة كان وحيا من السماء، وهذه الأحاديث هي:

عن أبى بصير عن أبى عبد الله أنه قال: وإن عندنا مصحف فاطمة، وما يدريهم ما مصحف فاطمة، إنما هو شيء أملاها الله وأوحى إليها.

وعبارة أوحى إليها هنا يمكن أن تحتمل معنى الوحى المباشر، ويمكن كذلك أن تحتمل معنى الإلهام، كما جاء فى الآية: «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه»، فالله لم يبعث جبريل إلى أم موسى ليقول لها أن ترضعه، لكنه ألهمها أن تفعل ذلك.

الرواية الثانية عن حماد بن عثمان أنه قال: سمعت أبا عبد الله يقول: تظهر الزنادقة فى سنة ثمان وعشرين وذلك أنى نظرت فى مصحف فاطمة، قال: قلت له: وما مصحف فاطمة؟ قال: إن الله تعالى لما قبض نبيه دخل على فاطمة من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فأرسل الله اليها ملكا يسلى غمها ويحدثها فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين، فقال: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولى لى فأعلمته بذلك، فجعل أمير المؤمنين يكتب كلما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفا.

وهى رواية خطيرة ـ لو صحت بالطبع ـ فليس معناها أن السيدة فاطمة هى وحدها التى كانت تتلقى الوحى عن جبريل عليه السلام، ولكن الإمام على رضى الله عنه هو أيضا كان يتلقى الوحى ويسمع عنه مباشرة، وهو ما يلقى بالظلال على القضية كلها، ويجعل منها مجرد اختراع محض لأنصار الإمام على حيث يريدون أن يضيفوا إليه ما لم يكن لغيره من الصحابة الكبار رضوان الله عليهم.

الرواية الثالثة عن أبى عبيدة عن الصادق أن فاطمة مكثت بعد رسول الله خمسة وسبعين يوما، وكان داخلها حزن شديد، وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها فى ذريتها وكان على يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة.

هذه الرواية تؤكد أن هناك مصحفا للسيدة فاطمة، لكنه ليس آيات قرآنية صريحة يمكن أن يتم التعبد بها، لكنها كانت أخبار يسلى جبريل عليه السلام بها السيدة فاطمة بعد أن مات الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ما يمكن أن يجعل منها كتاب تنبؤات بما يمكن أن يجرى حتى آخر الزمان، ولأن السيدة فاطمة لم تكن تجيد الكتابة فقد كانت أمية، فقد كان على رضى الله عنه هو الذى يتولى الكتابة نيابة عنها.

هذا التصور تحديدا هو الذى يمكن أن يجعلنى أتشكك فى نسبة الكتاب المسمى بمصحف فاطمة إلى بنت الرسول، فهناك على مدى تاريخنا نصابون كثيرون تملأ أسماؤهم كتب التراث، نسبوا للكبار ما لم يقولوه، ثم وقعنا نحن فى الفخ وبدأنا نقدس هذه الكتابات، لدرجة أننا نساوى بين هذه الكتب والقرآن الكريم شخصيا.

لكن ما الذى جاء فى مصحف فاطمة بالضبط حتى يتسرب أنه قرآن من السماء، لقد أجمعت روايات كثيرة على أنه لاشيء فى مصحف فاطمة من القرآن، عن ابن أبى حمزة عن عبد صالح قال: عندى مصحف فاطمة ليس فيه شيء من القرآن.

أبو حمزة عن أبى عبد الله قال: مصحف فاطمة ما فيه شيء من كتاب الله، على بن سعيد عن أبى عبد الله قال: وعندنا مصحف فاطمة ما فيه آية من كتاب الله، وعلى بن الحسين عن أبى عبد الله قال: وعندنا مصحف فاطمة أما والله ما فيه حرف من القرآن، قسم متعدد فى روايات عديدة بأنه لا شيء ولا آية ولا حتى حرف من كتاب الله.

مصحف فاطمة إذن شيء آخر، وعلى الأرجح فإن فيه حديثا طويلا عن مقام الرسول وعن مستقبل ذريتها وما سيحدث لهم بعدها، وكذلك فيه شيء كثير من الحوادث التى ستجري، وليس فيه شيء من الحلال أو الحرام، فهو ليس كتاب تشريع، وبه أسماء الأنبياء والأوصياء، فقد

قال الإمام على فى إحدى رواياته: ما من نبى ولا وصى إلا وهو فى كتاب عندى – ويعنى بذلك مصحف فاطمة–، وبه أيضا أسماء الملوك وآبائهم، حيث تنص إحدى الروايات التى تناولته أن فيه ما يكون من حادث وأسماء من يملكون إلى أن تقوم الساعة.

وقد يكون أهم ما يضمه كتاب فاطمة هو وصيتها الشرعية وجاء فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمد، أوصت بحوائطها السبعة العواف والدلال والبرقة والمثيب والحسنى والصافية ومال أم إبراهيم، إلى على بن أبى طالب، فإن مضى على فإلى الحسن، فإن مضى الحسن فإلى الحسين، فإن مضى الحسين فإلى الأكبر من ولدي، شهد الله على ذلك والمقداد بن الأسود والزبير بن العوام وكتب على بن أبى طالب.

وقد روى أن هذه البساتين السبعة كان رسول الله يأخذ منها ما ينفقه على أضيافه فلما قبض جاء العباس يخاصم فاطمة فيها فشهد على وغيره أنها وقف عليها.

الوصية السياسية مهمة جدا فقد جاء فيها موجهة كلامها للإمام علي: ثم إنى أوصيك فى نفسى وهى أحب الأنفس إلىَّ بعد رسول الله، إذا أنا مت فغسلنى بيدك وحنطنى وكفنى وادفنى ليلا، ولا يشهدنى فلان وفلان، ولا زيادة عندك فى وصيتى إليك واستودعك الله تعالى حتى ألقاك، جمع الله بينى وبينك فى داره قرب جواره.

من وقائع التاريخ يمكن لنا أن نستنتج من طلبات السيدة فاطمة من الذين طلبت ألا يحضروا دفنها، فقد أغضبها أبو بكر الصديق رضى الله عنه عندما لم يمكنها من ميراثها من الرسول لأنه سمع من الرسول قوله: إن الأنبياء لا يورثون، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه لأنه كان صخرة صلبة تحطمت عليها أحلام زوجها فى الوصول إلى خلافة الرسول، هذه بالطبع محاولة للفهم، خاصة أن أحدا من الذين تصدوا لمصحف فاطمة لم

يحاولوا أن يذكروا الأسماء واكتفوا بالقول فلان وفلان، وقد يكون مستبعدا أن تطلب السيدة فاطمة ذلك، أن تحرم من قامت الدولة الإسلامية على أكتافهم وكانوا يقفون إلى جوار أبيها حتى اللحظة الأخيرة من حضور جنازتها ودفنها، لكن ماذا نفعل ونحن محاطون من كل جانب بغابة من الأساطير والأكاذيب التى تسيطر على كتب التراث الملعونة.

فى رواية للطبرى تفاصيل أكثر ربما بعض الشيء عما ورد فى مصحف فاطمة، ففى سنده المتصل إلى أبى بصير قال: سألت أبا جعفر محمد بن على عن مصحف فاطمة فقال: أنزل إليها بعد موت أبيها، قلت: أفيه شيء من القرآن؟ قال: ما فيه شيء من القرآن، قلت: فصفه لي، قال: له دفتان من زبرجدين على طول الورق وعرض حمراوين، قلت: جعلت فداك، فصف لى ورقه، قال: ورقه من در أبيض قيل له كن فكان، قلت: جعلت فداك فما فيه؟ قال: فيه خبر ما كان وخبر ما يكون إلى يوم القيامة، وفيه خبر سماء سماء، وعدد ما فى السموات من الملائكة وغير ذلك، وعدد كل من خلق الله مرسلا وغير مرسل، وأسماؤهم وأسماء من أرسل إليهم، والكافرون من الأولين والآخرين وأسماء البلدان وصفة كل بلد فى شرق الأرض وغربها، وعدد ما فيه من المؤمنين، وعدد ما فيه من الكافرين، و صفة من كذب، وصفة القرون الأولى وقصصهم، ومن ولى من الطواغيت، ومدة ملكهم وعددهم، وأسماء الأئمة وصفتهم، وما يملك كل واحد واحد، وصفة كبرائهم وجميع من تردد فى الأدوار، قلت: جعلت فداك وكم الأدوار؟ قال: خمسون ألف عام وهى سبعة أدوار فيه أسماء جميع ما خلق الله وآجالهم، وصفة أهل الجنة، وعدد من يدخلها وعدد من يدخل النار، وأسماء هؤلاء وهؤلاء، وفيه علم القرآن كما أنزل، وعلم التوراة كما أنزلت وعلم الإنجيل كما أنزل وعلم الزابور كما أنزل وعدد كل شجرة ومدرة فى جميع البلاد.

أعتقد أن هذا الوصف الدقيق لمصحف فاطمة يدعونى على الفور للتوقف عن الكتابة، إن من يصدق أن هناك كتابا بهذه المواصفات فحتما يكون معتوها، ومن يكفر الشيعة مثلا على كتاب له هذه المواصفات الأسطورية الغارقة فى الخرافة لابد أن يكون معتوها أيضا، لكن من قال بأن الذين يتصارعون حول جثة الأديان عقلاء، إن هناك صراعات كثيرة بين السنة والشيعة على توافه الأمور، لكن للأسف الشديد تقوم الدنيا ولا تقعد على الأشياء التافهة فقط.

obeikandl.com

(٦)
هل ماتت السيدة فاطمة مقتولة؟

على طول وعرض كتاب ابن قرناس " أحسن القصص ، تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب الصور"، وهو يستند إلى آيات القرآن الكريم، مغيرا ومبدلا ومحورا فى أحداث تاريخية، كنا نعتقد أنها صحيحة، فإذا به يأتى ليقول إن القرآن الكريم لا يراها كذلك.

كانت رؤية ابن قرناس أكثر من مزعجة، لكن استوقفنى فى الكتاب ما ذكره عن سير الأحداث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالمعنى الأدق والأصوب بعد انقطاع الوحي، وعليه فالأحداث التى يتعرض لها ابن قرناس هنا لم يسجلها القرآن، ولم ترد به أى إشارة لها.

لكنه يضع يده فى حقيقة الأمر على أمر أعتقد أنه خطير للغاية، لأنه يقترب من وضعية الإمام على رضى الله عنه فى التاريخ الإسلامي.

يقذف ابن قرناس فى وجوهنا بمن اسماهم "مسلمى قريش"، وهؤلاء فئة أسلمت وآمنت بالرسول صلى الله عليه وسلم، لكن فى نفس الوقت ظل ولاؤهم وانتماؤهم وإخلاصهم الأول لقريش، ولذلك عندما مات الرسول صلى الله عليه وسلم حاول هؤلاء أن يستعيدوا مجد قريش مرة أخري.

يقول ابن قرناس: "يمكن القول إنه بمجرد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أطلت الفتنة برأسها، وسعت قريش بقيادة أبى سفيان والعباس إلى الاستيلاء على الحكم بالقوة منذ أن تولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قيادة المسلمين، وذلك عندما أشار أبو سفيان على الإمام على بإعلان نفسه حاكما والخروج عن طاعة أبى بكر، وسيضمن له الخيل

والرجال، كما روت كتب الأخبار، لكن مساعيهم لم تنجح لأن المؤمنين كانوا حاضرين، والمنافقون لا يستطيعون المجاهرة بالعداء بعد، واستمرت قريش تسعى للوصول لحكم دولة المسلمين ولو بشكل غير مباشر، وأحد هذه الطرق هو تنصيب أحد مسلمى قريش الموالين للمشركين حاكما، يمكنهم بواسطته توجيه إدارة الدولة كما يريدون".

لقد كانت هناك محاولات للانقضاض على دولة المسلمين منذ اللحظة الأولى لوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول ابن قرناس: "عندما انتفضت الشعوب والقبائل فى كل جزيرة العرب على المسلمين، بمجرد سماعهم خبر وفاة الرسول، استطاع المسلمون بصرامة أبى بكر استرداد السيطرة على أرض الجزيرة، بل والاستمرار بمعاقبة من عاون على حرب المسلمين من الفرس والروم، التى بدأت فى عصر الرسول، وهو ما عرف تاريخيا بالفتوح".

ويطعن ابن قرناس فى الكتب التى تشير إلى وجود تجاوزات فى حروب أبى بكر على المرتدين، فهى بالنسبة له الكتب التى كتبتها قريش، ولذلك فهى محل شك وريبة، فالأقرب أن جيوش ما سمى بالفتوح فى عصر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما كانت تسير حسبما أمر الله دون تجاوزات، ولم تسع جيوش المسلمين للحرب، ولكنها فرضت من قبل المعتدين من مشركين عرب، وخلفهم بنو إسرائيل والفرس والروم، فكان على المسلمين أن يحاربوهم بكل قسوة لا رحمة فيها لمن يسعى للقضاء عليهم وعلى الإسلام".

لم تكن فى حروب أبى بكر وعمر سبى أو استرقاق، ويستحيل أن تكون جيوش المسلمين زمن أبى بكر وعمر اقترفت المخالفات اللا إنسانية التى نقلتها كتب قريش التاريخية، والذى حدث هو أن جيوش قريش التى استولت على دولة الإسلام بعد ذلك هى التى اقترفت تلك المخالفات فى حق الشعوب المغلوبة على أمرها، ولأن حروب التوسع التى قامت بها حكومات قريش باسم الإسلام، استمرت طوال قرون، فقد نسى الناس تلك الفترة القصيرة التى لم تتجاوز عشر سنوات من الحروب الإسلامية

الإنسانية زمن أبى بكر وعمر، وحكموا على كل حروب المسلمين بما رأوه من حروب قريش باسم الإسلام، سواء فى شرق المتوسط أو شمال إفريقيا أو فى الهند والسند والأندلس".

لكن ما علاقة الإمام على بكل هذا؟

وما الذى جعل ابن قرناس يعتقد أن السيدة فاطمة الزهراء زوجته وابنة الرسول صلى الله عليه وسلم ماتت مقتولة، ولم تمت ميتة طبيعية؟

يقول ابن قرناس: "بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، ذكرت لنا كتب التاريخ أن على بن أبى طالب بويع بالخلافة من قبل بعض المسلمين دون البعض الآخر، وتقول تلك الكتب إن ممن بايعه وفد الثوار القادم من الكوفة، ضمن من ثاروا على عثمان، وسواء كان هذا صحيحا أم لا، فالوقائع تشهد أن على بن ابى طالب كان أول من أعلن إسلامه، وأنه أيضا كان يقاتل المسلمين".

هنا لابد أن أفتح قوسين لأضع بينهما ملاحظة ابن قرناس على كتب التاريخ، يقول: (نحن هنا نستمد معلوماتنا من كتب التاريخ التى لا نصدق ما جاء فيها، لأننا لا نملك مصادر غيرها).

لكن السؤال هو: لماذا ينظر ابن قرناس إلى الإمام على رضى الله عنه على أنه كان يقاتل المسلمين؟

يقول فى تفصيل ذلك: "لو كان قتال على انحصر ضد معاوية القرشى لأمكن أن يقال إن معاوية بلغت به الجرأة أن يحاول الاستيلاء على دولة الإسلام أو جزء منها(الشام)، فقام على بالتصدى له ولقريش، لكن على وقبل قتال معاوية، لاحق أم المؤمنين عائشة واثنين من أتقياء الصحابة هما طلحة والزبير، إلى مكة حتى خرجوا إليها هربا منه للاحتماء ببيت الله الحرام، ثم طاردهم للعراق بعدما خرجوا إليها من مكة، واشتبك مع جيش من البصرة حاول حماية أم المؤمنين ومن معها فى قتال، قتل فيه

طلحة والزبير وعشرات الآلاف ممن يحسبون على المسلمين، قبل أن يتصارع مع معاوية، كما لاحق حفظة القرآن الذين أطلق هو عليهم الخوارج، وكأنهم خرجوا عن الإسلام لأنهم خالفوا طاعته، وسحقهم حربا وصبرا، وهذه الوقائع تظهر على كطالب للحكم، وأول من قام بالتصفية الجسدية لمعارضيه، وأول من قاتل المسلمين، وأول من أطلق ألقاب الكفر والتخريب على من يخرج عن طاعته كحاكم، وكأن طاعة الحكام طاعة لله".

أعرف أن هذا كلام غريب جدا، خاصة أنه يقال عن الإمام على رضى الله عنه، وهو ما يبعث على الريبة فى مقاصد ابن قرناس، فهو يهجم هذه الهجمة الشرسة على الإمام على خصما من رصيد الشيعة، للأسف الشديد فإن ندرة المعلومات عنه وعن انتمائه وتكوينه يحول دون أن نربط بين ما يقوله وما يسعى إلى تنفيذه، فقد يكون أحد أدوات مواجهة المد الشيعى فى السعودية، لكن حتى هذا لا نستطيع أن نجزم به، لأننا لا نملك ما نرتكن عليه لإثباته.

لكن ابن قرناس يعود ويتدارك ما قاله من خلال سؤال يطرحه، وهو: هل كان الإمام على ضحية من المسلمين الأتقياء انقاد لدسائس قريش؟

أم أنه أول من وصل لحكم دولة الإسلام من مسلمى قريش؟

والسؤال تلزمه إجابة، يقول ابن قرناس: " لو نظرنا إلى المستفيد من سياسة على ابن أبى طالب لما وجدناه الإسلام ولا المسلمين، ولكنها قريش، فهى المستفيد من تلك المذابح لأنها أضعفت المسلمين الأتقياء، وجعلت استيلاء قريش على حكم دولة الإسلام ممكنا".

ويكشف ابن قرناس عن وجهه، ساعيا إلى إدانة الشيعة، فهو يرى أنه لو كان أحد غير الإمام على من اقترف هذه الحرب لصب عليه التاريخ غضبه ولعناته، لكن ما حدث على أرض الواقع هو أن الحقائق عكست تماما، وتحول ما فعله فى حروبه إلى فضائل، كما تحول سعيه للحكم

إلى حق إلهى أعطاه الله إياه، وقد اقترنت نسبة الفضائل لعلى وأحقيته بتولى الحكم بتشويه تاريخ أم المؤمنين عائشة، مما يعنى أن هذا التشويه جاء متعمدا، لطمس حقيقة أن قريش استطاعت الوصول إلى تصريف حكم دولة الإسلام، وإخفاء حقيقة أن السيدة عائشة كانت من أنشط المؤمنين الأتقياء الذين قاوموا محاولات قريش للسيطرة على الحكم، فجاء القضاء عليها ومن معها من خلال الإمام علي، سواء كان ذلك بعلمه ورضاه أو باستغلال قريش لغفلته.

لقد كانت السيدة عائشة تتمتع بشخصية قوية جعلت منها سدا منيعا مع المؤمنين المخلصين ضد محاولات قريش للسيطرة على حكم دولة الإسلام بعد وفاة الرسول، ولأن قتل أم المؤمنين سيجعل الناس يتمسكون بمبادئها، فقد قررت قريش سلب قوتها فى التأثير على الناس بطريقة أخرى تمثلت بتشويه سمعتها، والقضاء عليها وهى حية، وعلى سمعتها بعد وفاتها، فتم تشويه ومسخ تاريخها، وتم ترسيخ هذا المسخ وتوارثناه على أنه الحقيقة.

ويذهب ابن قرناس إلى حقيقة أن من تسموا بالشيعة لم يختلقوا التهجم على أم المؤمنين، لأنه بدأ قبل ظهور عقائدهم، ولكنهم عملوا على ترسيخه فيما بعد، لأنهم وجدوا فى القصص المختلقة على أم المؤمنين ما يمجد على بن أبى طالب، الذى ترتكز عقائدهم على تقديسه.

لقد بالغ الشيعة فى تقديس الإمام علي، حيث نجد أنه لم يكتب لأحد فى تاريخ الإسلام ما كتب لعلى من فضائل بما فى ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، فوصف بأنه ولى الله، ووصل الأمر ببعض الناس القول إنه لولا على لما خلق الله الكون، وغير ذلك الكثير.

ويرجع ابن قرناس إلى فرضيته الأولي، يقول: "إن كان هذا الاستنتاج صحيحا فهذا يجعلنا نعيد التساؤل: هل كان على بن أبى طالب ضحية لقريش وقام بما قام من حروب تصفية وهو يظن أنه يخدم الحق وليس قريش؟ أم أنه

كان أحد مسلمى قريش، وعمل على الاستيلاء على حكم دولة الإسلام؟".

والإجابة التى يطمئن إليها ابن قرناس أنه فى كلتا الحالتين، فقد قامت أم المؤمنين عائشة بحملة تحذيرية لمن بقى من المؤمنين الأتقياء من المخطط الذى يسعى له على بعد قتل عثمان، وكان معها طلحة والزبير، وقد غادروا المدينة إلى مكة، ظنا منهم أن الاحتماء ببيت الله الحرام كفيل لتوقف على عن ملاحقتهم، لكن شيئا من هذا لم يحدث.

هربت أم المؤمنين وطلحة والزبير من مكة باتجاه العراق، أملا فى الاحتماء بالبصرة التى تبعد عن مكة بما يزيد على ١٢٠٠ كيلو متر، والتى لم تقبل بتولى على للسلطة، فلحق بهم إلى هناك، مما جعل أهل البصرة يخرجون لملاقاة جيش على حماية ودفاعا عن أم المؤمنين، فوقعت المعركة على مشارف البصرة من جهة الغرب، وفى مكان قريب من بلدة الزبير الحالية، التى سميت باسم الزبير بن العوام الذى قتل بالقرب منها ودفن هناك، وقد قتل طلحة معه فى المعركة أيضا، إضافة إلى الآلاف غيرهم، وكانت أم المؤمنين معرضة للقتل لولا أن عليا منع ذلك لئلا يثور عليه مناصروه، لمكانة أم المؤمنين فى قلوب الناس، وقد شوهت هذه الحقائق وقلبت فأصبحت أم المؤمنين وطلحة والزبير هم الأشرار، بينما أسبغ على الإمام على ثوب القداسة، وصورت حملات التطهير التى قادها للتخلص ممن يعارض توليه سلطة الدولة المسلمة لعلمهم بميوله إلى حملات لخدمة الإسلام.

إن الدور الذى قام به الإمام على من وجهة نظر ابن قرناس جعله يضع مجموعة من الأسئلة أعتقد أن الإجابة عنها مهمة للغاية، وهي:

أولا: لو حقق التاريخ بتجرد فسيكون بالإمكان التساؤل إن كانت السيدة فاطمة الزهراء قد قتلت أم أنها ماتت ميتة طبيعية؟ وهل كان قتلها إسكاتا لصوتها لئلا تفصح عما قد تكون اكتشفته مما كان يدور

بين زوجها الإمام على وكبراء قريش وعلى رأسهم العباس وأبى سفيان أثناء اجتماعاتهم فى بيتها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؟

ثانيا: ويكون بالإمكان التوقف عند تواجد الإمام على فى المدينة أثناء حصار عثمان دون أن يحرك ساكنا للدفاع عنه، خاصة أن من بايعه بالخلافة هم من اشتركوا فى قتل عثمان؟

ثالثا: لماذا قام الإمام على بتصفية كل معارضيه، وهل معارضوه كانوا بالفعل يحاولون وقف اجتياح قريش لسلطة دولة الإسلام؟

رابعا: لماذا تجاسر على وترك عاصمة الإسلام بالمدينة واستبدالها بالكوفة؟

خامسا: لماذا لم يحسب الإمام على من بين الخلفاء الراشدين حتى جاء أحمد بن حنبل، الذى كان أول من طالب بأن يعتبر رابعهم، بعد موته بأكثر من ٢٠٠ عام؟

إننى أمام محاولة من ابن قرناس لكتابة تاريخ الإمام على من جديد، لكنها محاولة لم تكتمل، فلا توجد لديه مصادر، ولذلك فإنه يكتفى بأن يطرح تساؤلات، قد تكون تساؤلات منطقية جدا، لكنها تساؤلات، البحث عن إجابة لها أمر ضرورى.

ما أحب أن أثبته هنا أن محاولة ابن قرناس التى عرضت لها، كانت محاولة للدفاع عن الإسلام، وليست محاولة للخصم منه، كما فهم البعض عن طريق الخطأ، إنه يبحث فى التاريخ، ولا يبحث فى العقيدة، وحتى الذين يمكن أن يعترضوا على ما قاله ابن قرناس عن على ابن أبى طالب سيقعون فى فخ، فهم يتعاملون مع البشر على أنهم آلهة لا تخطئ ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، أما التاريخ فهو لا يرى ذلك مطلقا.

(٧)
زوجات الرسول اليهوديات

عندما نشرت الصحف الدنماركية رسوماً للرسول وزوجاته رأى البعض ـ رغم الغضب الذى كاد يعصف بالجميع ـ أن بها ولو قدراً يسيراً من حرية الرأي، فالرسوم والأعمال الإبداعية تحمل قدراً من وجهة نظر صاحبها، وهو وحده الذى يتحمل مسئوليتها، لكن شيئاً من هذا لا يمكن أن نتفاعل معه بسهولة فيما نشرته الجريدة الإسرائيلية «يديعوت آحرونوت».

كان العنوان الذى ساقته الجريدة عادياً هو «زوجات الرسول اليهوديات»، وهذا لا شيء فيه فالرسول تزوج من يهودية واحدة، لكن الجريدة عمدت إلى الغمز واللمز فى سيرة الرسول وليتها كانت أمينة فى اعتمادها على المصادر التى نقلت منها، لكنها أخذت منها ما أرادت وحجبت ما شاءت حتى تخرج بنتيجة واحدة وهى الإساءة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وتشويه أهل بيته.

كاتب المقال هو البروفيسور "رونين إسحاق" وهو محاضر لتاريخ الشرق الأوسط فى الكلية الأكاديمية «جليل معراقي» يقول رونين: على الرغم مما ورد فى التراث الإسلامى حول وصف أعمال وأنشطة الرسول إلا أن هناك حالة من العجز عن تحديد عدد النساء اللاتى تزوجهن طوال حياته، وتأتى الصعوبة من عجز المؤرخين المسلمين فى تحديد من منهن كانت زوجته ومن كانت ملك يمينه، ورغم الاعتراف بهذا العجز إلا أن الكاتب الإسرائيلى يطمئن إلى رأى المؤرخ الإسلامى ابن سعد ويسند ظهره على كتابه الشهير «الطبقات الكبري» حيث يقول فيه: إن الرسول تزوج بـ١٢ امرأة من بينهن يهوديتان ومسيحية واحدة.

يهتم المقال بالزوجتين اليهوديتين يقول: فى عام ٦٢٧ ميلادى قرر الرسول القضاء على القبيلة اليهودية الثالثة فى المدينة وهى قبيلة «بنى قريظة» «، فى هذه المعركة قتل ٧٠٠ رجل وتم بيع الأطفال والنساء وتم تقسيم المتلكات بين المسلمين الذين اشتركوا فى المعركة، وكانت من بين النساء اللاتى فقدن أزواجهن فى المعركة «ريحانة بنت زيد» وتشير بعض المصادر الإسلامية– لاحظ أن كاتب المقال لا يحدد لنا ما هى هذه المصادر الإسلامية ـ كانت شابة وجميلة إلى الحد الذى جعل الرسول يتأثر بجمالها وعندما رآها عرض عليها إما أن تظل فى السبى أو تدخل الإسلام وتتزوجه، وقال لها: إذا اخترت الله ورسوله سأتزوجك، لكن ريحانة رفضت الإسلام فى البداية، لكن الرسول مارس عليها ضغوطاً كثيرة حتى دخلت الإسلام».

وتشير المصادر التى لم يذكرها المؤلف للمرة الثانية أن الرسول تزوج ريحانة دون أن يكون بينهما حب، ولذلك خانته وعندما اكتشف الأمر اضطر أن يطردها من بيته على حد تعبير الكاتب، ولكن اشتياقه لها عندما تزايد دعاها للعودة مرة أخرى.

ويزعم الكاتب الإسرائيلى أنه نظراً لأن كل أفعال الرسول وأقواله كانت تعد نموذجاً يحتذى به فقد خشى المؤرخون المسلمون أن تتحول فعلة ريحانة وموافقة الرسول على عودتها رغم خيانتها سابقة من شأنها زعزعة وضع وصلاحية الرجال، لذلك فإن معظمهم زعم أن ريحانة لا تعد من زوجاته الشرعيات بل كانت من بين ملك يمينه، ويظهر هنا لأول مرة اسم أحد المؤرخين المسلمين وهو محمد بن اسحاق والذى توفى عام ٧٦٧، حيث يدعى رونين أن ابن اسحاق حدد بشكل واضح أن ريحانة كانت زوجة شرعية للرسول.

لم يحدد لنا رونين أين قال ابن اسحاق ما قاله ولا أين حدد ما حدده، بل إنه تجاهل ما قاله ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى رغم أنه اعتمد

عليه قبل ذلك فى تحديد العدد الرسمى والحقيقى لزوجات الرسول.

يقول ابن سعد «اعتق النبى ريحانة بنت زيد وكانت عند زوج لها مكرم فقالت لا استخلف بعده أبداً، كانت ذات جمال فلما سبيت بنو قريظة عرض السبى على النبى فكانت فيمن عرض على النبى فأمر بها فعزلت، فلما عزلت أرسل بها إلى منزل أم المنذر أياما حتى قتل الأسرى وفرق السبي، ثم دخل عليها فاستحيت منه، فدعاها ليجلسها بين يديه وقال لها: إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه، فاختارت الله ورسوله فلما أسلمت اعتقها وتزوجها.»

هنا لم يضغط الرسول عليها ولكنه خيرها وإذا كانت ريحانة فعلت ذلك تحت تأثير الخوف من الموت اتقاء شر التغرير بالشرف فإن هذا شعور إنسانى وطبيعى ولا يمكن أن يلام الرسول فى موقفه لأنه لم يجبرها على شيء، فقد أعجب بها لأنها كانت ذات جمال، ويشهد أصحاب هذه الرواية أن الرسول كان معجباً بها وكانت لا تسأله شيئاً إلا أعطاها وقيل لها: لو كنت سألت رسول الله فى بنى قريظة لأعتقهم، لكنها كانت ترد على ذلك بقولها: لم يكن يخلو بى حتى فرق السبي.

وفى طبقات ابن سعد هناك روايات أخرى تخص ريحانة بنت زيد ومنها أن الرسول خيرها أن يتزوجها أو تكون فى ملك يمينه فقالت: فى ملك يمينك أخف على وعليك فكانت فى ملك يمين النبى يطؤها حتى ماتت، وهناك رواية أخرى تقول: إن ريحانة رفضت الإسلام وقالت: أنا على دين قومى فشق ذلك على الرسول ثم أسلمت وكان يطؤها بملك اليمين، لم ينف المؤرخون المسلمون إذن أن هناك روايات متعددة تتعلق بريحانة لكن ما لم يرد فى أى مصدر من المصادر أن ريحانة خانت الرسول وأنه أعادها بعد أن اشتاق إليها، فقد أخرج السيدة عائشة من بيته عندما أحاط بها حادث الإفك واتهمها بعض الصحابة بالزنى ولم يعدها إلى بيته مرة أخرى إلا بعد أن أعلنت السماء براءتها مما نسب إليها، ولو

كانت ريحانة فعلت ذلك لما أعادها الرسول، فهى لم تكن ـ رغم جمالها أعز ولا أحب إليه من السيدة عائشة التى كانت أحب زوجاته إليه.

نعود مرة أخرى إلى مقال الجريدة الإسرائيلية يقول كاتب المقال: بعد عام واحد من زواج الرسول بريحانة تزوج بأرملة يهودية أخرى هى صفية بنت حيى بن أخطب، وهنا يقع كاتب المقال فى زلة أخري: وفى الكتاب الذى صدر بعنوان «صفية الزوجة اليهودية لمحمد» (صدر فى يوليو ٢٠٠٦) لم يقل لنا كاتب المقال من هو مؤلف الكتاب ولا ما هى صفته ولا أين صدر ولا فى أى بلد، لكنه ورغم ذلك يقول على لسان المؤلف المجهول: كانت صفية ضحية وقد رفضت الاغتسال قبل الزواج وأنها لامت أختها التى حاولت إقناعها بأن تشهر إسلامها وأنها أسلمت رغماً عنها دون أدنى خيار، ومن خلال النظر إلى المصادر الإسلامية ــ لا يحددها كاتب المقال للمرة الثالثة ـ فإن صفية تظهر كشخصية مراوغة استغلت الفرصة للتخلص من العبودية وتحسين وضعها، وكانت قد ولدت عام ٦١١ وكانت زوجة لأحد الزعماء اليهود فى خيبر والذى قتل لأنه لم ينفذ شروط اتفاق الخضوع وكانت وقتها تبلغ من العمر ١٧ عاماً.

ويشير كاتب المقال إلى أن الرسول انبهر بجمالها واقترح عليها أن يحررها من الأسر إذا ما تزوجته، وعلى عكس ريحانة بنت زيد وافقت صفية على الفور، وبدا الأمر غريباً ليس لكونها زوجة لأحد الزعماء اليهود فقط، بل لكونها ابنة من قام بإدارة حرب ضارية ضد الرسول، بل ومحاولة قتله أيضاً، ويبدو أن الرسول فوجئ من سرعة قبول صفية للدخول فى الإسلام وذكرها قائلاً: إن والدك كان أحد أعدائى حتى قتله الله، لكنها لم تفكر ولم تتردد فى قبول عرض الرسول عليها بالزواج.

وفى حالة من الاستخفاف ينقل كاتب المقال ما ذكره مؤلف كتاب «صفية الزوجة اليهودية لمحمد"، يقول: شقيقة صفية خانتها فهى التى أخبرت المسلمين بأصلها الكبير والمحترم وهو ما جعل الرسول

يقبل على الزواج منها، وعندما تزوجها الرسول وفى إحدى الليالى سمع الرسول بعض الضوضاء ورأى حارسه ينظر إليه هو وصفية وأصيب الرسول بالذهول وسرعان ما قال له حارسه: إننى أراقبك خوفاً من هذه المرأة التى قتلت كل أسرتها، وهى تستطيع أن تنتقم منك وتفتكك وأنت نائم، لكن الرسول بدد كل هذه المخاوف التى اشتعلت فى صدر حارسه وقال له: إنه يطمئن إليها وأنه لا يجب أن يقلق عليه.

ويختتم كاتب المقال رؤيته المنحازة والتى لا تقف على قدمين بأن دخول صفية إلى حرملك الرسول ـ والذى كان وقتها يضم خمس زوجات آخريات ـ قد عكر الصفو، فحسب ما ورد أن همست إحدى الزوجات إلى أخرى قائلة لها: أنا أخشى أن تبقى هذه المرأة مع الرسول أكثر منا، وكان لجمالها الخاص والأخاذ دور فى أن تغير الزوجات الآخريات منها، ويجزم كاتب المقال إن الرسول كان يتعامل مع صفية بعدل واحترام وظل الزواج بينهما أربع سنوات وأثمر ابنة، وهى معلومة لم يسندها الكاتب إلى أى مصدر معروف أو حتى مجهول، وهو ما يشكك فى صحتها، خاصة أن المعروف عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم ينجب إلا من السيدة خديجة ومن السيدة مارية القبطية ولم يرزقه الله لا بأولاد ولا بنات من أى من زوجاته.

قصة السيدة صفية كما روتها الجريدة الإسرائيلية ناقصة وتحتاج إلى إعادة ترميم، جمعت عدداً من المصادر الإسلامية مثل تاريخ الطبرى وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام والإصابة لابن حجر، حاولت أن ألخص الحكاية من بين السطور الكثيرة، لن أدافع عن الرسول هنا، ربما لأن الدفاع يقوم به الضعفاء فقط، لكننى سأضع ما يطمئن إليه العقل والمنطق من تفاصيل الحكاية.

بعد أن خربت خيبر على يد الرسول سيقت إليه النساء سبايا وفى مقدمتهن صفية زوجة كنانة، وكنانة هذا كان صاحب حصن القموص أعز حصون خيبر، اقتحم المسلمون هذا الحصن وجاءوا بكنانة إلى الرسول حياً،

كان عنده كنز بنى النضير، ولما سأله الرسول عنه أنكر أنه يعرفه أو يعرف مكانه، فقال له الرسول: إن وجدناه عندك، أأقتلك؟! فقال له: نعم، بحث المسلمون عن الكنز فلما وجدوه عنده أمر الرسول بكنانة إلى محمد بن سلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن سلمة الذى قتله اليهود فى المعركة.

كان زوجها مقتولاً قبل ساعات إذن، لكنها لم تقف وحدها بين يدى الرسول، كانت إلى جوارها ابنة عم لها، مر بهما بلال على قتلى قومهما قبل أن يصل إلى الرسول، أرادت صفية أن تصرخ، لكن الصرخة وقفت عند حدود شفتيها، لكن ابنة عمها صرخت ولطمت وجهها ووضعت التراب فوق رأسها، غضب الرسول من قسوة بلال، ألقى الرسول نظرة على المرأتين وقال لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما، ربما كانت هذه هى اللحظة التى التفتت فيها صفية إلى الرسول، فهو ليس سفاحاً يقتل بغير حساب، لكنه رجل مشاعره تسبقه، أمر الرسول بصفية فوقفت خلفه وألقى عليها رداءه فكان ذلك إعلاناً منه بأنه اصطفاها لنفسه، ويروى أنس بن مالك إن الرسول لما أخذ صفية بنت حيى قال لها: هل لك فيّ؟ قالت: يا رسول الله قد كنت أتمنى ذلك من قبل فكيف إذا أمكننى الله منه فى الإسلام، فأعتقها الرسول وتزوجها وكان عتقها صداقها.

لقد تعجب الكاتب الإسرائيلى من سرعة السيدة صفية فى الاستجابة للرسول، خلفيات ما دار بين الرسول وزوجته تكشف لنا ولو جانباً من مبررات هذه الاستجابة السريعة، فقد انتظر الرسول بخيبر حتى هدأت مناحة النساء على الرجال وظن أن الروع قد ذهب عن صفية أو كاد، فحملها وراءه وانطلق بها إلى منزل فى أطراف خيبر فمال يريد أن يعرس بها لكنها تمنعت ورفضت أن يفعل، فغضب منها وحملها لها فى نفسه، فلما وصل بها إلى الصهباء التى تبعد كثيراً عن خيبر ونزل هناك ليستريح بدا له أن صفية متهيئة للعرس.

جاءتها ماشطة فمشطتها وجملتها وأظهرت آيات جمالها وسحرها، وأقبلت صفية على الرسول تمنحه نفسها كاملة، من الطبيعى أن يتبادر للذهن أنها رفضت معاشرته فى البداية لأنها كانت قريبة من أرض أهلها، وقد تكون قد خجلت مما يحدث بينها وبين الرجل الذى قتلهم جميعاً، لكنها وكما يقول ابن اسحاق، كان لها حديث آخر ومختلف تماماً قالت للرسول: إنها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع رأت فى المنام أن قمراً وقع فى حجرها فلما صحت من نومها قصت رؤياها على كنانة فقال غاضبا: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً، ولطم وجهها لطمة ظل فى وجهها أثر منها.

فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت تنتظره فما الذى جعلها تتمنع عليه، سألها: ما حملك على الامتناع أولا؟ فأجابته: خشيت عليك قرب اليهود، ومن بين ما ينسب للسيدة صفية أنها قالت: كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة غدا عليه أبى وعمى مغسلين، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس فأتيا كالين ساقطين يمشيان الهوينى فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال عمي: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما فى نفسك منه؟ فأجاب: عداوته والله ما بقيت.

كانت السيدة صفية تعلم إذن أنه رسول، علمت ذلك من أقرب الناس إليها، لكن شيئاً من هذا لم يمنع أن يسرى القلق فى نفوس الصحابة، فصفية فقدت أعز من لديها أبوها وزوجها وعمها، فكيف يعقل أن تستريح وتلقى برأسها على كتف رجل سقاها من كأس العلقم هذا، فخارج القبة التى دخل إليها الرسول مع صفية بات رجل من الانصار وهو أبو أيوب خالد بن زيد ساهراً مستعداً بسيفه يطوف حول القبة،

وفى الصباح سأله الرسول: مالك يا أبا أيوب، فقال له: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة؛ قد قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك.

فى الرؤية الإسرائيلية أن الرسول قال لأبى أيوب إنه يطمئن إليها، لكنه عند المؤرخين المسلمين تعامل مع الموقف بما يليق به، فقد قدر قلق أبى أيوب عليه وتفهم دوافعه فقال له: اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني، وهنا يأتى الفارق فصاحب كتاب «صفية الزوجة اليهودية لمحمد»، والذى اعتمد عليه كاتب المقال الإسرائيلى أراد أن يظهر الرسول رجلاً شهوانياً يسير وراء رغباته والسلام غير واضع فى اعتباره أية مخاطر يمكن أن يتعرض لها، وأن صفية استغلت ذلك فلعبت عليه لتربح ويهدأ لها الحال. فقد رأت أنها هالكة لا محالة فآثرت السلامة.

عاشت السيدة صفية فى بيت الرسول وبين زوجاته حياة من اطمأنت لزوجها وحسن إسلامها على يديه ولم يكن ينغص حياتها إلا غيرة النساء التى لم يكن بيت الرسول يخلو منها، فقد كانت الزوجات تقودهن السيدة عائشة يتفاخرن على صفية بأنهن جميعاً عربيات قرشيات وهى الوحيدة الأجنبية.

شكت ذلك للرسول فقال لها: ألا قلت لهن: وكيف تكن خيراً منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسي، وكان الرسول يحس أن صفية تشعر بالغربة فى بيته وبين زوجاته فكان يتأهب للدفاع عنها فى الوقت المناسب، خرجت معه فى سفر وكانت معهما زوجته السيدة زينب بنت جحش، فضعف بعير صفية وكان فى إبل زينب ما يمكن أن تمنحه لصفية فقال لها الرسول: إن بعير صفية اعتل فلو أعطيتها بعيراً، فردت زينب فى ترفع: أنا أعطى تلك اليهودية، فولى الرسول عليه الصلاة والسلام عنها غاضباً وتركها ثلاثة أشهر لا يقترب من حجرتها.

وظل الرسول يدافع عنها حتى وهو فى مرضه الأخير، اجتمعت زوجاته من حوله قالت له صفية: إنى والله يا نبى الله لوددت أن الذى بك بي، فتبادلت الأخريات نظرات فيها الاحتجاج والغضب والدهشة فنظر إليهن الرسول قائلاً: تمضمضن، فتساءلن فى دهشة: من أى شيء؟ فقال: من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة، مات الرسول إذن وصفية جالسة إلى جواره، قد تكون دخلت الإسلام وفى نفسها شيء من أثر دماء أهلها، لكنها وهى فى بيت الرسول أسلمت وحسن إسلامها، فلم تكن فيما فعلت مكرهة.

ولا يخشى من دونوا التاريخ الإسلامى أن يذكروا هذه الواقعة عن السيدة صفية، فقد ذهبت إحدى جواريها إلى عمر بن الخطاب قائلة له: يا أمير المؤمنين، إن صفية تحب السبت وتصل اليهود، فبعث عمر إلى صفية يسألها عن ذلك فأجابت: أما السبت فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لى فيهم رحماً فأنا أصلها، ثم عادت إلى جاريتها فسألتها عما حملها على مثل هذا الافتراء فقالت لها الجارية: إنه الشيطان.

هنا حالة إنسانية راقية ونادرة من امرأة راجحة العقل، فهى أسلمت وتخلص لإسلامها ولزوجها الذى كان رأس هذا الدين، لكن إسلامها لا يمنعها مطلقاً من أن تصل رحمها حتى لو كانوا يهوداً، فالإسلام يصل ولا يقطع، أو هكذا يجب، ولو كانت السيدة صفية اقترفت ما يسئ إليها أو إلى إسلامها لنهاها عمر بن الخطاب عن ذلك وهو من عرف عنه أنه لم يصمت عن حق يراه حتى لو كان الأمر متعلقاً بزوجات الرسول وأهل بيته.

يمكن بالطبع أن يغضب البعض لما فعلته الجريدة الإسرائيلية باعتباره إهانة وهذا من حقهم، لكن ما يستوقفنى هنا أكثر أن التشويه هذه المرة جاء على جناح الجهل فكل المصادر التى حاول الكاتب الإسرائيلى

إيهامنا بأنه عاد إليها جاء بين سطورها ما يجعل مما فعله الرسول أمراً عادياً ومقبولاً باعتبار أن البيئة التى كان يعيش فيها كانت تتقبل كل ذلك، لكن الكاتب الإسرائيلى ومن وراءه الكاتب المجهول الذى اعتمد عليه أخذا من هذه المراجع ما يروق لهما وتركا ما يزعجهما أو ما يقلل من أهمية ما يذهبان إليه.

obeikandl.com